عكس الطيور

(من قامشلو حتى أوسلو)

قصص

الكتاب: عكس الطيور (من قامشلو حتى أوسلو)

الكاتب: عبد الباقي حسيني

الطبعة الأولى: 2018

جميع الحقوق محفوظة

الناشر: **دار الزمان**
للطباعة والنشر والتوزيع
فايبر وواتس آب:
00964 772 4223169
موبايل: 00964 750 3598630
E-mail: zeman005@hotmial.com
Website: www.darzaman.net

الإخراج الداخلي: **دار الزمان**

لوحة الغلاف **الفنان: عنايت عطار**

تصميم الغلاف: **م. جمال الأبطح**

Copy Right © Dar Zaman Publishing

لا يسمح بطباعة هذا الكتاب أو تصويره أو نسخه
إلا بإذن خاص ومسبق من الناشر

All right reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted.
without permission in writing from the publisher

عبد الباقي حسيني

عكس الطيور

(من قامشلو حتى أوسلو)

الدونجوان

كان «ريبر»، يردد العبارة التالية: انتقال المرء من بيئة نائية ومحافظة إلى بيئة حضارية منفتحة بشكل مفاجيء، يدخله في متاهات عدة، ويصعب عليه التأقلم بسهولة مع البيئة الجديدة. بالرغم من أنه كان واثقاً من تحضره، لكن، فهمه للبيئة الجديدة كان فيه شيء من المبالغة، فكان يعتقد أن المجتمع الحضاري المنفتح، يعيش في بيئة دون قيود ونظم، بإمكان المرء أن يعمل مايريد، حراً، دون الالتزام بأي معايير إجتماعية أو أخلاقية.

بعد ان أنهى ريبر المرحلة الثانوية في الثمانينات من القرن المنصرم، وحصل على البكالوريا (الثانوية العامة) في أحدى مدارس قامشلو، أتيحت له فرصة اتمام دراسته في إحدى جامعات القطر، فاختار جامعة دمشق، كونه كان مغرماً بالعاصمة وياسمينها وفتياتها. لم يكن ريبر يشبه شباب جيله، كان متقدماً عليهم بفكره وشكله. كان يحاول أن يكون حضارياً بكل معنى الكلمة، وبسبب وسامته كان يتصرف كالدونجوان. يحاول بالرغم من بيئته المحافظة أن يكون له صديقات من بنات الحارة، أو من بنات الأهل، لكن، الطقوس الاجتماعية كانت تمنعه أن يتنقل بين «حوريات» منطقته.

استأجر ريبر غرفة عند عائلة مسيحية في حي راقٍ من أحياء دمشق، ولكون امكانيات والده المادية كانت جيدة، فكان يدفع وقتذاك 400 ليرة سورية إيجار الغرفة، في الوقت الذي كان يستأجر الطلاب الآخرون غرفة في المدينة الجامعية ب 25 ليرة. لهذا كانت تنظر صاحبة البيت إلى ريبر، كشاب برجوازي، من عائلة ميسورة. فكانت تحترمه كثيراً وتخدمه كأحد أفراد عائلتها، وتقدمه

إلى جميع ضيوفها، على أنه طالب جامعي من عائلة غنية، قادم من الجزيرة السورية، ومستأجر عندها. كان الضيوف في حالة من الفضول أن يتعرفوا على هذا الشاب الغريب الوسيم، كان الكثير منهم لديهم رغبة في أن يصادقوا ريبر، بالمقابل كان ريبر يتصرف كبرجوازي، لا يعير الناس البسطاء أي اهتمام، فهو يحب معاشرة العائلات الراقية وبناتهم الجميلات. حاولت صاحبة البيت عدة مرة أن تعرض على ريبر فتيات متوسطي الجمال للتعارف، فكان ريبر لا يبالي، ولم يعيرهم أي إهتمام.

في أحد الأيام زارت عائلة راقية صاحبة البيت، امرأة تدعى «جورجيت» ومعها إبنتها في عمر ريبر تدعى «لينا»، مصطحبين معهم كلب اسمه «ماكس»، كان زوج جورجيت مقيم في بيروت يتابع أعماله، بينما هي وابنتها لينا تعيشان في دمشق.

كانت لينا من الفتيات الجميلات، تتمتع بمواصفات مذهلة، مليئة الأرداف، بيضاء البشرة، وجهها دائماً مضيء كقمر في يومه الرابع عشر، فيها خصلة خفة الدم، حضارية إلى أبعد الحدود، مثقفة، تتقن عدة لغات، فبالإضافة إلى العربية كانت تتقن الانكليزية والفرنسية بطلاقة. أعجبا لينا وريبر ببعضهما البعض، وازدادت صداقتهما يوماً بعد يوم.

لم يكن عمر ريبر وقتها يتجاوز عمره الـ 19 عاماً، فهو في دمشق من أجل الدراسة، لم يفكر قط بالالتزام الاجتماعي أو الزواج في وقتها، كانت فكرته أن يقضي بعض الأوقات الجميلة مع الفتيات إلى جانب دراسته الجامعية، يعيش أيام شبابه في هذه الأجواء المخملية.

لم يفكر ثانية بأن يضع نفسه في خانة الزواج وتحت ظل امرأة ومسؤوليات البيت، لكن والدة لينا السيدة جورجيت كانت لديها خطة خاصة بها، على ان تكون لينا زوجة لـ ريبر في المستقبل.

تعمقت صداقة ريبر ولينا، كان «عريس الغفلة» يزورهم كثيراً، ويستمتع بوقته مع لينا ووالدتها، لكن الأم كانت ترعب ريبر عندما كانت تلمح له على أنه «عريس لقطة». بعد هذه التلميحات أصبح ريبر يترك فراغاً جيداً بين زيارة وأخرى، لكي يرى مدى صدق علاقتهم ومدى تعلقهم به. فكانوا دائماً هم المبادرون، يأتون لعند الجارة ـ صاحبة البيت ـ بحجة رؤية ريبر والسؤال عنه وعن أحواله.

من ناحية أخرى، كان ل ريبر أصدقاء كثر في الجامعة وأغلب أصدقائه كانوا من الجنس اللطيف، وبشكل خاص الجميلات منهن، كان دائماً برفقة احداهن، كانت تدعى سوزان، شركسية الأصل، وسوزان هذه كانت محسوبة على الجميلات والمميزات في الكلية، شقراء، عيناها زرقاوان، ممشوقة القد، شعرها طويل ذهبي، خصلاتها تشبه أشعة الشمس، مضيئة دائماً، كان جمالها ورقيها تضاهيان الأوربيات في جمالهن ورقيّهن، حتى في كل دمشق كان من الصعب أن ترى مثيلة لها.

كان ريبر يقضي أوقات جميلة مع زميلته سوزان في الكلية، وخارج الكلية، كانت عواطفه مع لينا، وإذا صادف في الطريق أية فتاة تلفت أنظاره أو تبدي اعجابها، كان يحاول التقرب منها أيضاً.

في أحد الأيام طلبت جورجيت والدة لينا من ريبر، أن يأخذه لينا معه إلى الكلية للتعرف على معالمها. تفاجأ ريبر من هذا الطلب،

تمالكه الخوف، وازدادت ضربات قلبه، وأصبح يحاكي نفسه، كيف أتصرف؟، ماذا سيحدث لو رأت سوزان صديقتي لينا وتدرك العلاقة بيننا؟، لا شك أنني سأفقد احداهن، وربما الاثنيتن معاً؟، علي أن أكون حريصا وذكياً في هذه المهمة، على الأقل أحافظ على واحدة منهما.

في اليوم الثاني، كانت لينا جاهزة لتذهب مع ريبر إلى كليته . كلية الدراسة .، ولكي تتعرف على معالمها وحياة الطلاب هناك، وبنفس الوقت تتعرف على أصدقاء وزملاء ريبر.

مجرد أن اتجها صوب الجامعة، بدأت الأفكار تراود ريبر، ويخطط لكل الاحتمالات، كيف سيتصرف، ماذا سيقول عن لينا لصديقاته وبشكل خاص لسوزان؟. هو لايريد أن يفقد سوزان، بنفس الوقت يريد المحافظة على لينا.

عندما وصل الاثنان إلى حرم الجامعة، رأى ريبر أن مجموعة كبيرة من أصدقائه وصديقاته يفترشون الأرض في حديقة الكلية، حاول أن يتجنبهم ويسلك طريقاً آخر، لم يستطع، ناداه أحدهم: ريبر تعالَ إلى هنا، الكل هنا. تردد ريبر كثيراً، وخاصة عندما رأى المعجبات به كلهم هناك، وكذلك صديقته وزميلته سوزان. اقترب ريبر ولينا منهم. سأله الكل وبصوت واحد: من هي هذه الصبية الجميلة التي معك؟.

توقف ريبر عن الجواب قليلاً ثم قال: أنها أختي!. مرة ثانية صرخ الجميع: يا الهي (واو)، كم هي جميلة وأنيقة مثلك!. انصدمت لينا من كلام ريبر، وتبسمرت في مكانها، أدركت وقتها أن احداهن تكون صديقة ريبر. لم تدم الجلسة مع «الشلة» طويلاً، طلبت سوزان من ريبر أن يحضر معها المحاضرة الأخيرة في مادة

الكيمياء، وقالت: إنها محاضرة قيمة، سيعلن البرفسور عن المواضيع الهامة للامتحان. تعالَ، ودع أختك مع الأصدقاء.

طلب ريبر من لينا أن يذهب إلى المحاضرة، وقال: سأعود إليك مجرد الانتهاء منها، استمتعي بوقتك مع بقية الاصدقاء. هزت لينا رأسها بالموافقة، دون أن تقول شيئاً.

ذهب ريبر وسوزان إلى قاعة المحاضرات، ولسوء حظ ريبر، استغرقت المحاضرة حوالي الساعتين. كان وضع ريبر في هذه الفترة كمن يضع قلبه على صفيح نار ساخنة، ينظر إلى ساعته كل دقيقة، يساءل نفسه: ترى ماذا تفعل لينا الآن؟، هل ضجرت الآن؟، أم ماذا؟، استرسل في الهذيان مع نفسه؛ إذا خرجت من القاعة، سيراني المحاضر وسيأخذ نظرة سلبية علي، كوني تركت محاضرته، وربما يرسبني في مادته. من ناحية أخرى!، ماذا ستقول سوزان عني؟، أكيد ستشك في أمري أن لينا ليست أختي!. مرت ساعتان كانهما سنتان عند ريبر.

ودعت سوزان ريبر وقالت له اذهب إلى أختك. هرع ريبر بإتجاه لينا، ليرى وضعها، رأى أن لينا جالسة مع أحد أصدقائه وهما مندمجين في الكلام، أدرك فيما بعد أن لينا قد قصت عليه حقيقة العلاقة بينها وبين ريبر، وأنها ليست بأخته، بل هو صديقها، وصديق العائلة، في المقابل كان صديقه قد أسرّ بجميع أسرار ريبر لـ لينا، على أن هناك علاقة مميزة بينه وبين سوزان، ومعروف أيضا بـ «الدونجوان» بين الصديقات. كانت علامات الاحباط ظاهرة على وجه لينا، ونظراتها له فيها الكثير من العتاب وخيبة الامل.

عادا الاثنان إلى البيت، عندما اقتربا من منزل والدتها، ترك ريبر يد لينا و قال: سلمي على طنط جورجيت (طنط كلمة لبنانية بمعنى العمة)، لا مجال لدي الآن ان أكون معكم. كان ريبر خائفاً من مواجهة طنط جورجيت، وخاصة إذا ما تكلمت لينا عن الذي جرى معهما في الكلية، وموقف ريبر أمام أصدقائه. قال لنفسه: تجنب المواجهة ولو مؤقتاً، ودّع لينا على أمل اللقاء بها قريباً.

مر أكثر من عشرة أيام على هذا الحدث، ولازال ريبر خائفاً من مواجهة والدة لينا، خائفاً أن يزورهم ويواجهونه بالحقيقة. كان يعتقد أن عشق عدة فتيات في آن واحد مرجلة وأمر هين، لكنه اكتشف مؤخراً، أن الأمر ليس كذلك.

بعد فترة زارت لينا ووالدتها ريبر، للإطمئنان عليه، هل هو سليم أم مريض؟ تفاجأ ريبر بهذه الزيارة، ولم يعد يعرف كيف سيتصرف. كانت طنط جورجيت أذكى منه، حاولت بطريقتها الخاصة أن تخرجه من هذا المأزق، وقالت: أدرك لماذا عرفت لينا أمام أصدقائك على أنها أختك، أعرف أنك مسلم ولينا مسيحية، لكن بعلمك أن والد لينا هو الآخر مسلم مثلك. استمرت جورجيت في كلامها، وقالت: صحيح أنك هنا في دمشق من أجل الدراسة، لكن لم يطلب أحد منك الزواج الآن.

انشرح صدر ريبر قليلاً وقال في داخله: هذه المرأة ذكية، لقد خففت عني هول المواجهة وشجعتني أن أتكلم. قال: صحيح طنط، أن أهلي أرسلوني إلى هنا من أجل الدراسة، وليس لكي أتزوج، وكما تعرفي لا عمري ولا عمر لينا يصلحان للزواج في الوقت الحالي، لينا ستبقى صديقتي ونور عيوني، سأحميها دائماً طالما أنا موجود.

ردت الأم، وقالت: بإمكانكما أن تكونا أصدقاء، لا داعٍ أن تفكرا بالزواج الآن، أدرك أن شاباً مثلك ومن عائلة ميسورة بإمكانه أن يتزوج متى أراد، لكن حياة الاستقراطيين لها طقوسها الخاصة في الحب والزواج.

منذ ذاك اليوم فتحت صفحة جديدة بين ريبر ولينا، على أن يكون أصدقاء من نوع خاص، لكن بهجة الحب وشعاعه بدأت تتضاءل رويداً رويداً، ولم تعد مشرقة كما كانت سابقاً.

بدأت العلاقة بينهما من جديد، وبشكل فاتر، وأصبح كل واحد منهم يمارس هواياته لوحده، إلى أن جاءت عطلة الصيف، ذهب ريبر إلى أهله في الجزيرة، وذهبت لينا مع والدتها إلى لبنان عند والدها، ومنذ ذاك الوقت باتت العلاقة شبه منقطعة.

مرت فترة طويلة، حوالي ثلاثين عاماً على هذه القصة العاطفية، كان ريبر قد استقر مع عائلته في أوربا، يعيش بهدوء ويتابع هواياته، هو كغيره من الناس، كان مشغولاً أيضاً بالتكنولوجيا الحديثة، وبشكل خاص مع شبكة التواصل الاجتماعي، فيسبوك، وغيرها من التطبيقات الأخرى. ولكون هواية ريبر الرئيسة كانت الكتابة، وله عدة مؤلفات، كانت صفحة الفيسبوك مهمة له ليتواصل مع أصدقائه وقرائه ومعجبيه.

استطاع ريبر من خلال هذه الصفحة أن يتعرف على الكثير من أصدقائه القدامى، ومنهم صديقته القديمة لينا.

كتب ريبر على المسينجر لـ لينا التالي: هانحن نلتقي عبر هذه الشبكة مع بعضنا البعض، بعد كل هذه السنوات، أنا ريبر، عاشقكِ الذي لم يستطيع أن يضمك إلى صدره وقتذاك!.

ردتْ لينا عليه، وكتبت: تذكرتك، وتذكرت مغامراتنا الجميلة في شوارع دمشق وحدائقها وطوق الياسمين الذي اشتريته لي وقتها، أنا مقيمة الآن في أمريكا، أعدكَ عندما أزور أوربا أن التقيك أيها الدونجوان!.

أمل الحب، ضحية الحب!

بدا «دانا» كبقية اللاجئين القادمين من كردستان الجنوبية إلى أوربا، دائم التحسر إلى وطنه الأم، يحن إلى أهلها، جبالها، وديانها، طقوسها الاجتماعية،..إلخ. بعد عدة سنوات من بقائه في إحدى الدول الاسكندنافية، وبعد أن جمع بعضاً من المال لنفسه، أراد ان يتزوج من إحدى فتيات بلده، فهو صاحب مبدأ وعقيدة لم تتزعزع، فخلال وجوده الطويل في أوربا وبالرغم من المغريات والعشيقات من الجنسيات المختلفة، بالإضافة إلى الأوربيات، إلا أنه كان مصمماً أن تكون زوجة المستقبل من بلده وملته، فهو يريدها مطيعة، مغمضة العينين، و(لم ييس فمها غير أمها)، كان حلمه القديم هو أن ترضى به إحدى فتيات القرية.

بدأ يستعد للسفر إلى بلده، جهز نفسه على أربعة و عشرين قيراطا، اشترى تذكرة الطائرة من أوسلو إلى هولير، كما اشترى بعض الهدايا لأفراد عائلته.

عندما وصل إلى مطار هولير - أربيل، خرج مسرعاً من بهوه، كي يتنفس هواء بلده، جاءته نسمة منعشة، استنشقها طويلا وقال: ياالله، هذا الهواء أنساني جميع همومي وتعبي في بلاد الغربة.

في اليوم الأول من وصوله للقرية؛ قريته الواقعة بين مدينتي هولير ودهوك، والمعروفة بطبيعتها الخلابة وناسها البسطاء، سمع جميع أبناء القرية بقدوم دانا، وأصبح الاهتمام به على قدم وساق، وخاصة بعد أن علموا أنه لازال أعزبَ، وكان الاهتمام الأكبر به من العائلات التي لديها فتيات مرشحات للزواج.

مضى يومان.. ثلاثة على وصوله، سألته والدته: بني، ألم تفكر هذه المرة بالارتباط، وأن تختار لنفسك عروسة من القرية؟. انتعش

دانا من سؤال والدته، وكأنه كان ينتظر هذا الموضوع بفارغ الصبر، ليفضي بمشاعره لوالديه ويتحدث معهما عن رغبته الكامنة منذ زمن. في المقابل كان دانا قد استغل وجوده في القرية منذ وصوله، فتجول فيها بحثاً عن شريكة لحياته.

رد على والدته، وقال: نعم، لدي نية بالزواج هذه المرة. فرحت الأم لكلام ابنها وأصبحت تعد على أصابع يدها أسماء بنات القرية القابلات للزواج، واللواتي ينتظرن فرسان أحلامهن. أدلى الأب بدلوه أيضاً في هذا الموضوع، وأصبح يسمي أسماء العائلات التي لديها بنات للزواج، وعلى أنهم أناس طيبون ومناسبون للمصاهرة.

هز دانا رأسه مومئاً بالموافقة وقال لوالديه: خلال اليومين الماضيين، وبينما كنت أتجول في القرية، وقعت عيناي على فتاة جميلة جداً، يقع بيتها في زاوية الشارع، منزلهم مطلي باللون الأصفر. قبل أن ينهي دانا كلامه، قفزت أخته مباشرة وقالت: لقد عرفتها. اسمها «دلين»، ابنة فرحو، صحيح، أنها آية في الجمال، ممشوقة القد، عيناها واسعتان كعيون الغزلان، شعرها طويل يصل إلى خصرها.

قال والداه معاً: إنها من عائلة جيدة، غداً سنذهب إليهم، لطلب يدها.

ردت الأخت، وقالت: مهلاً، توقفوا قليلا، أعتقد أنها مخطوبة لابن عمها.

انزعج الأب، وصرخ بصوت عال: ماذا يعني انها مخطوبة لابن عمها! عندما نذهب لخطبتها من أبيها، سوف تنسى أسرتها ابن

العم وابن الخال. أهلها سيتصرفون بشكل جيد. إن مستقبل ابنتهم سيكون أفضل مع ابننا دانا.

في اليوم الثاني أرسلوا «مرسالاً» إلى بيت دلين، ليعلموا أهلها برغبتهم في زيارة العائلة. ذهب الجميع إلى عائلة دلين. بعد التحية والسلام، سأل والد دلين والد دانا وقال: خير إن شاء الله سبب هذه الزيارة المفاجئة والجميلة؟ رد والد دانا مباشرة وبدون مقدمات:

كما تعلمون أن ابني دانا قادم من أوربا لكي يتزوج من هنا، رأينا جميعاً أن ابنتكم دلين وقع الاختيار عليها، وهي مناسبة لابننا دانا. تفاجأ والد دلين وأراد أن يعلق على كلامه، لكن والد دانا كان بارعاً في متابعة حديثه، وسد الطريق أمامه، وقال: اسمعني ياسيدي، كما تعلم أن ولدي دانا أصبح له في أوربا أكثر من عشر سنوات، فهو يعمل ليلاً ونهاراً، يملك منزلاً هناك وعمله مؤمن وحياته جميلة وهادئة، لم يفكر قط أن يتخذ إحدى الأوربيات زوجة له، هو رجل مخلص لقومه ووطنه، لذا قدم إلى هنا كي يتزوج إحدى بنات قريته، المرأة التي ستتزوج من دانا ستدخل النعيم، وابنتك في حال أصبحت من نصيبه ستعيش في بحبوحة هناك عنده في أوربا، ستكون حياتها وحياة أولادها في أمان. سيدي،عليك ترك العادات البالية مثل مسألة الحيار، حيار بنت العم أو بنت الخال. هذه العادات تعرقل حظوظ بناتنا. إننا أصبحنا في زمن آخر، علينا أن نكون مع العصر، ونرى مصالح أولادنا وبناتنا، وما هو الأفضل لهم. ابنتك محظوظة، جاءتها فرصة من السماء، عليكم بإلاستفادة منها لكي تؤمن حياة سعيدة ومريحة لابنتكم.

هز والد دلين رأسه وبدأ يفكر بكلام والد دانا، رأى فيه المنطق الصحيح، وفي الوقت نفسه نظر إلى دانا، رأى فيه شاباً وسيماً، ووضعه مناسب في أوربا، قال في داخله:

لمَ لا؟!.. رد الأب وقال لوالد دانا: حسناً ياسيدي، أمهلونا ليوم الغد، سأناقش الموضوع مع عائلتي، ونرد لكم الجواب بعدها. أمضوا جميعاً ليلتها بسعادة كبيرة، وعادت عائلة دانا إلى منزلها مسرورة ومتفائلة.

بعد الزيارة بيوم، طلب والد دانا منه أن يذهب إلى السوق ويشتري بعض الحلوى والفواكه ويذهب بها إلى عائلة دلين، ليسأل والدها عن موقفه من الزواج، ولكي يحددا معاً يوم خطوبتهما.

لبى دانا طلب والده. ذهب إلى السوق واشترى بعض الحلوى وفواكه، وهدية ذات قيمة لـ دلين، واتجه إلى منزل والدها. عندما رأت العائلة كرم دانا الملحوظ، فرح الجميع من هذا التصرف، كما فرحت دلين من هديتها وصاحب الهدية، ربما كانت الهدية الأولى لها في حياتها، بالرغم من أنها خطيبة ابن عمها، فلم تر منه أي شيء حتى تلك اللحظة، مع هذا كانت دلين تكن لابن عمها حباً شديداً.

جلس دانا بينهم جميعاً، وأصبح يقص عليهم قصصاً عن الحياة في أوربا، يصف طبيعتها وجمالها وكل الإيجابيات فيها. أدخل أفراد العائلة في أجواء عالم آخر؛ أجواء خيالية لم يسمع بها أحد منهم من قبل. انشرح الجميع من حديثه، وتولد لديهم طموح في أن يعيشوا تلك الحياة..

قال والد دلين لدانا: بني، جوابنا على طلبكم هو كالتالي:علينا أولاً ان نقنع إبن عم دلين، بأنه لم يعد له نصيب في الاقتران

بابنتنا، فإذا مرت الأمور بسهولة، وقتها سنتكلم في موعد الخطبة وإجراءاتها.

انشرح صدر دانا لكلام والد دلين، وكاد أن يطير من الفرح. استودعهم وقال: أتمنى أن أسمع الأخبار الجميلة قريباً.

مرت عدة أيام، ولم يسمع دانا أي خبر أو استجابة من قبل عائلة دلين، فذهب إليهم، وتساءل قائلاً: خير ياجماعة، لم أسمع منكم أي جواب!؟.

قالوا له: إن ابن عمها رجل صعب، لا يقبل بالفكرة، ويرفض أن تقترن إبنة عمه برجل غريب. رد دانا وقال: هل لكم أن تعطوني اسمه وعنوانه، سأذهب إليه وأقنعه بالأمر. فأعطوه عنوان بيته، وذهب إليه مباشرة. عندما التقاه، رأى أن ابن عمها شاب بسيط، فقير. وبعد التحية والسلام عرفه بنفسه وقال: هل لنا أن نذهب معاً إلى المطعم في دهوك ونتكلم هناك على راحتنا، يقولون إن مطعماً مشهوراً قد تم افتتاحه مؤخراً في المدينة، وأنه معروف بمأكولاته اللذيذة. تردد ابن العم من طلب دانا. قال دانا له: لا تتردد ولا تفكر بتكلفة الفاتورة، أنا من أدعوك، أنت ضيفي. ذهبا إلى المطعم الجديد وطلبا الأكل، حاول دانا أن يبالغ في تقديم الأكل والطلبات، لكي يظهر لابن عم دلين المسكين كرمه الطائي.

أثناء الأكل، فتح دانا الموضوع وقال له بصريح العبارة: أرغب في الزواج من دلين، لا أعتقد أنها تستطيع الانتظار لسنوات أخرى، حتى تتمكن من ترتيب أمورك لتتزوجها. دعها حرة، أعدك بأنني سأساعدك مادياً لكي تحسن ظروفك وترتب أمورك خلال السنوات

القادمة، وقتها جميع بنات القرية ستتمنين الزواج منك. دع هذه الفرصة تمر بسلام.

صدم الشاب من كلام دانا وبدأ يفكر بحزن، مخاطباً نفسه: يا الله ما هذه المصيبة، هذا الغريب يطلب يد خطيبتي مني بكل وقاحة. إنه رجل جريء ومندفع، وفي الوقت نفسه جيوبه مليئة بالنقود، وأنا العبد الفقير، لا حول لي ولا قوة، إذا اعترضت، بالتأكيد سيعاند وسيتزوج من دلين بالقوة وسيقنع والديّ دلين بالمبالغ الكبيرة، وهكذا سأخسر دلين وسأخسر العرض المقدم لي. سأقبل بالعرض، كي أستفيد أنا الآخر من نقوده وأحسن حالتي المعيشية، لتذهب دلين إلى مصيرها، هذه المرة سأدوس على قلبي مرغماً، بالرغم من أننا نعشق بعضنا البعض بجنون، كان حبنا تاريخياً..لكن، لا مفر من هذه المصيبة!.

دفع دانا الكثيرمن النقود لابن عمها، وخطب دلين، قضيا معا أياماً جميلة في القرية. عاد دانا إلى أوربا، وبدأ بإجراءات معاملة الزواج، وخلال فترة قياسية جلب دلين إلى مسكنه الأوربي، وعاشا حياتهما الزوجية.

في الأشهر الأولى حاول دانا كثيراً أن يسعد دلين، فكان يأخذها يومياً إلى المعالم السياحية في أوسلو، يدور بها بسيارته إلى الأماكن المميزة، يرتادان المطاعم الشرقية والغربية، يشتري لها كل ما تطلبه.. لكن دلين، وبالرغم من كل هذه المغريات والدلال، كانت دائماً في حسرة أهلها وقريتها. كانت تتذكر في بعض الأحيان مواقفها العاطفية مع ابن عمها، تتفقده، تحن إليه، فهي لم تنسه أبداً.

كانت دلين كئيبة، تحترق بين نارين. النار الأولى، الحياة اليومية في أوربا، كل شيء حواليها جديد وصعب فهمه، كان الوقت عندها يمر ثقيلاً، فزوجها دانا يخرج يومياً كل صباح إلى عمله ويرجع في المساء متعباً، منهمكاً. النار الثانية، عندما تتذكر الحياة اليومية البسيطة في القرية بين أهلها وصديقاتها، وكذلك حبها لابن عمها وذكرياته التي تؤلمها.

كان دانا يدرك أن دلين تعاني من الملل والضجر، كونها وحيدة، تقضي كل النهار وحدها بين أربعة جدران، ليس بمقدورها التجوال في المدينة وحدها، ولا أن تختلط بالآخرين، فهي جاهلة لا تتقن لغة أجنبية لكي تتواصل وتسيّر أمورها. طلب دانا منها أن تنجب منه طفلاً، لكي يصبح أملاً لهذا الحب والزواج من ناحية، ومن ناحية أخرى، كي تهتم دلين برعاية طفلها وتربيته، وهكذا سيملأ حياتها وتتخلص من الملل.

رحبت دلين بالفكرة، على أن تحبل وتلد طفلاً لدانا، وطلبت منه أن يشتري لها هاتفاً ذكياً، لكي تتواصل مع أهلها من خلاله وتملأ الفراغ التي تعيشه، إلى أن تضع الطفل. اشترى دانا لها هاتفاً حديثاً، وأصبح كل يوم يعلمها على كيفية استخدام أزراره ووظيفة كل واحد منها، وكذلك التطبيقات الموجودة فيه من سكايب وواتس آب وفايبر، لتتواصل مع أهلها بسهولة.

تعلمت دلين استخدام الهاتف، وأصبحت تتصل مع أهلها بشكل يومي، وفي بعض الأحيان مع ابن عمها، خطيبها السابق، ويتذكران من خلال حديثهما أيامهما الخوالي، وتنتهي دائماً مكالماتهما بشيء من الحسرة والحزن.

ازدادت علاقة دلين مع ابن عمها يوماً بعد يوم، وعادت كما الماضي، لتتبادل معه أحاديث الحب والغرام.

من ناحية أخرى فإن ابن عمها، حاول في فترة غياب دلين من القرية وبمساعدة النقود التي أخذها من دانا، أن يحسن من وضعه المادي، فأصبح رجلاً يملك بعض المال، يؤهله لأن يتحرك ويسافر إلى أية منطقة أو بلد يريده. كان هدفه الرئيس أن يلتقي حبيبته ذات يوم.

ولدت دلين وأنجبت طفلة من دانا. اختارا لها اسم «هيفي» أي الأمل. قال دانا لـ دلين؛ لقد جلبت لي «أمل» الحياة والمستقبل، وأهداها هدية ثمينة بعد ولادتها.

وجود هيفي في حياة دلين لم يوقفها من متابعة حبها القديم، استمرت مكالماتها مع ابن عمها. ذات يوم قال لها ابن عمها: سآتي إليك، هاأنا قد هيأت نفسي للسفر، لدي من المال ما يخولني أن أكون عندك. مضت أيام معدودة، وكان ابن عمها في الطريق، وبوساطة بعض المهربين في تركيا، وصل إلى أوربا، نزل في محطة القطار في أوسلو، وأخبر دلين، إنه الآن في مدينتها، وقريب منها.

تواصلت دلين مع ابن عمها في السر، وساعدته، كي يكون له موطئ قدم في أوربا. دامت علاقتهما إلى فترة لابأس بها.

دانا، من ناحيته كان يلاحظ بعض التغييرات في مزاج دلين وتصرفاتها، لكنه لم يكن يتصور أبداً بأنها ستخدعه أو ستخونه في يومٍ ما.

في أحد الأيام، وبينما كانت دلين بصحبة ابن عمها في البيت، نسيت موعد قدوم زوجها دانا، وإذا به فجأة يقف أمامهما. صدم

دانا من وجود ابن عمها في منزله. هرع دانا إلى المطبخ وجلب سكيناً ليقتله، دلين وقتها كانت تحمل ابنتها هيفي بين يديها، حاولت أن تمنع دانا من التقرب من ابن عمها، فأصبحت في المنتصف بين الاثنين، لكن جنون دانا لحظتها جعله ألا يدرك مايفعل، فاندفع بإتجاههما وبدأ يطعنهما بسكينه، طعنات عدة، فأصاب ابن العم ودلين والصغيرة هيفي. هرع الجيران إليهم لمعرفة ما يحدث وللمساعدة! أخبروا الشرطة بأن ثمت شجار وصراخ في البيت الفلاني، وأنهم شاهدوا رجلاً يحمل في يده سكيناً ملطخة بالدم، وقد خرج من البيت كالمجنون متجهاً نحو الغابة القريبة.

عندما وصلت الشرطة إلى المكان، شاهدوا منظراً مفزعاً، ثلاث ضحايا ملطخين بالدماء، مرميين على الأرض. طلبوا الاسعاف مباشرة. ماتت الطفلة هيفي في الطريق إلى المشفى، كانت اصابتها خطيرة. بينما دلين وابن عمها مكثا طويلاً في المشفى إلى أن تعافا.

صارت صارت قربانا لقصة حب مؤلمة، بينما دلين وابن عمها أصبحا بائسين، معطوبين في الحياة.

قبضت البوليس على دانا، وأحالوه إلى المحكمة. كان القاضي صارماً في حكمه، لم يرغب أن يسمع من دانا أي مبرر لفعلته الشنيعة، كونه قتل ابنته الصغيرة هيفي وتسبب في تعطيب شخصين آخرين، فحكم عليه بالسجن لمدة عشرين عاماً.

أزعر قدوربك

«كفتارو»* اسم على مسمى، شاب في مقتبل العمر، يطلق عليه في الحارة اسم «ضبع الحارة»، كونه كان من أشرس وأعتى زعران «حارة قدوربك»*، كان أزعر في جميع أعماله، فلم يترك أحداً من شره. كل الأعمال القذرة التي تخطر على بال المرء، كان يقوم هذا الشاب بممارستها، من سرقة، لعب القمار، الزنى، تعاطي المشروبات والمخدرات، التعامل مع الأسلحة البيضاء والنارية، واستخدامها ضد الناس عند الضرورة. فهو معروف بصاحب السكاكين والشنتيانات*.

كان الناس في قلق دائم من وجود كفتارو في الحارة، فكل حادثة تحدث في المنطقة من عراك أو قتل أو سرقة أو تحرش، كانوا يشيرون بالبنان إليه، كان اسمه قد أصبح كابوساً لدى أغلب العائلات في الحارة، كانت العائلات المحافظة تسايره وتعطيه بعض المال أحياناً، لكي يتجنبوا شره. كانت تلك العائلات تخاف على بناتها منه، فكفتارو لا يملك ذرة من الأخلاق. فهو بكل سهولة يتحرش بالفتيات. أحيانا يمسك بصدورهن مباشرة، أو يضرب بكفه على مؤخراتهن، لذا كان كلهم يتحاشاه.

قضى كفتارو نصف عمره في السجون، كل عناصر الشرطة في مدينة قامشلو كانوا يعرفونه، كونه كان ذات سطوة على أغلب أحياء المدينة، والتي كان يأتي منها المال الحرام. فهو كان شريكاً لهم، أو يأخذ حصة منهم على شكل «خوة»*. أجل، فقد كانت له حصة أيضاً في بيوت الدعارة، فكرخانة* قامشلو المعروفة والواقعة قرب «جب فرنسا»❖ كانت تحت سيطرته. كل أصحاب محال القمار كانوا يهابونه، وبشكل خاص المقمرة الواقعة تحت جسر نهر جغجغ❖. كان كفتارو يسرق كل شيء ابتداءاً من الدجاجة وحتى سرقة محلات الصياغة.

في إحدى المرات وبمناسبة أحد الأعياد، كانت «الكورشما»❖، أي فتح الحدود الدولية بين تركيا وسوريا عبر بوابة قامشلو - نصيبين، ولساعات محدودة لزيارة الاقارب، أو التسوق بين المدينتين المتجاورتين. لم يتردد كفتارو ولا ثانية. ذهب هو الآخر مع جموع من الناس إلى نصيبين، بقي كفتارو هناك لليوم الثاني، بشكل غير قانوني (قجغ)*، أراد ان يدلل نفسه ويذهب إلى بيوت الدعارة هناك أيضاً. سأل بعض المارة عن تلك الأماكن. ردوا عليه وقالوا: توجد «كرخانة» في دياربكر، لا توجد هكذا أماكن في هذه المدينة. لم ينتظر كفتارو كثيراً. ذهب إلى سائق ميكروباص (دولميش) واتفق معه على أن يأخذه إلى دياربكر لكي يمارس الجنس في كرخانتها، ومن ثم يعود به ثانية إلى نصيبين.. قال للسائق: كل ماتطلبه من الأجرة أنا جاهز.

وصل كفتارو إلى كرخانة دياربكر، تفاجأ، لا بل صدم من الكم الهائل من المومسات والعاهرات القادمات من كل صوب وحدب: شقراوات، سمراوات، أفارقة، أتراك، كرديات...

كما تفاجأ بالنظام الموجود هناك، ومن حماية العسكر للمكان. أصبح كفتارو يقارن بين هذه الكرخانة وكرخانة قامشلو، ويقول لنفسه: الجنة هنا. وكل هؤلاء العاهرات هن الملائكة والحوريات، كان ينظر إليهن بحسرة، إلى أن وقعت عيناه على إحداهن. قال لها: أنت!. صاحبت العاهرة كفتارو إلى مخدعها، غرفتها، وطلبت منه المال مقابل الجنس، والدفع مقدماً. حاول كفتارو أن يتملص من الدفع. قالت له العاهرة: إذا لم تدفع المال مقدماً فإنك لن تمسني. هذا هو المعتاد عليه هنا، وإذا لم يعجبك الأمر بإمكانك الخروج من الغرفة. خضع كفتارو لشروط الكرخانة الجديدة، ودفع لها.

ضاجعها. بعد الانتهاء من عملية المضاجعة، قالت له العاهرة: سوف أغتسل وأخرج، بإمكانك ان تغتسل بعدي ومن ثم تذهب.

لم يخطر ببال العاهرة بأن هذا «الزبون» قد يسرق محتويات غرفتها. سر كفتارو بكلام العاهرة، كونها فرصة له بأن يختلي بغرفتها ويسرق منها كل ما هو ثمين. فهو لم يفكر أن يغسل حتى عضوه التناسلي، بل كل تفكيره ذهب إلى سرقة الغرفة، خلال ثوان معدودة كان لكفتارو مايريد، بعد أن قلب سريرها رأسا على عقب، فرأى كل ماحصلت عليها العاهرة في ذاك اليوم من النقود هناك. وضع كفتارو النقود في جيبه، كان المبلغ جيداً، رفع كفتارو يديه إلى السماء وقال: أشكرك إلهي، مارستُ الجنس، وهاهي نقودي تعود إلي مع مضاعفة...!

خرج كفتارو من الكرخانة، وأسرع باتجاه الميكروباص الذي استقله وقال للسائق: هيا لنعد. سأله السائق: هل سررت؟ رد عليه كفتارو؛ لقد سررت كثيراً. إنها الجنة بكل مقاييسها وفيها رزق جيد. لم يفهم السائق كلام كفتارو. أخرج كفتارو من جيبه النقود ودفع للسائق أجرته وقال له: انتهت المهمة!.

بعد هذه الحادثة، بدأت علامات التغيير تبدأ على كفتارو، ويتذمر من وجوده في قامشلو، يخاطب نفسه: لم تعد قامشلو تكفي متطلباتي، علي أن أكبر من مساحة «استثماراتي».

الوضع في سوريا لم يعد يحتمل. فهو يتحول من سيء إلى أسوأ. كل الناس يفكرون بالهجرة. فلماذا لا أجرب أنا ايضاً حظي، وأسافر إلى أوربا، فهناك ستكون ضالتي؟.

قرر كفتارو العودة إلى تركيا لكي يذهب من هناك إلى أوربا، خلال أيام أصبح في إسطنبول. بدأ هناك بجمع النقود بكل الوسائل المتاحة من سرقة، نهب، تحايل،..إلخ. بعد فترة وجيزة جمع كماً من المال تكفيه السفر إلى أوربا.

حاول كفتارو مع بعض المهربين لقطع الحدود بين تركيا وبلغاريا. التقطته الشرطة البلغارية عدة مرات. كانوا يضربونه، يهينوه ويسلموه إلى السلطات التركية. جرب كفتارو المحاولة كثيراً إلى أن نجح أخيراً وأصبح في إحدى المدن البلغارية الحدودية. ذهب إلى إحدى فنادقها بجواز سفر أوربي مزور، كان فندقاً جيداً. في الطابق السفلي من الفندق يوجد بار للمشروبات الروحية. نزل كفتارو إلى البار لكي يشرب شيئاً ما. رأى هناك عدداً كبيراً من الفتيات الجميلات. لباسهن يدل على أنهن بنات الهوى. عدسات عيني كفتارو توسعت إلى آخر درجاتها. قال بصوت خفيض: يا الله، لقد اجتمعت جميع عاهرات بلغاريا هنا. إنها جنة ثانية بعد دياربكر. متع بصره برؤيتهن. شرب كأساً من الويسكي، حاول أن يلفت نظر الفتيات. ثم خرج إلى المدينة، لكي يتعرف على بعض معالمها. خلال مشواره القصير، أدرك أن المدينة بحكم قربها من الحدود التركية فيها الكثير من أماكن الرفاهية، ففي المدينة أكثر من ثلاثة كازينوهات للقمار، هذا ماعدا الفنادق الفخمة والتي تتوفر فيها كل وسائل الترفيه للانسان.

دخل كفتارو إحدى الكازينوهات ليجرب حظه في القمار، لعب وربح مبلغاً جيداً، عاد إلى بار الفندق، طلب كأساً من الويسكي لكي يلفت نظر الفتيات، لاحظت الفتيات أن هذا الرجل غريب، لاسيما أن مشروب الويسكي غير مألوف عند البلغار، فهنا الفودكا و لجين

تونيك مشهوران. اقتربت إحداهن من كفتارو وبلغة انكليزية ركيكة، تبادلا الحديث.

عرض كفتارو عليها النقود لممارسة الجنس معها في غرفته بالفندق، وافقت الفتاة. ذهبا إلى الغرفة لكي يمارسا الجنس، بعد الجماع، طلبت الفتاة أن تستعير حمام كفتارو لتغتسل، فقال لها: تفضلي. في هذا الأثناء، انكب كفتارو على حقيبة الفتاة وأخرج منها مافيها من النقود التي أعطاها إياها في البار، بالإضافة مافي حوزتها من نقود. خرجت الفتاة من الحمام وحملت حقيبتها وقالت لكفتارو (باي).

فرح كفتارو كثيراً من الإنجاز الذي حققه، وقال: هذه نعمة من الله، أن تمارس الجنس مجاناً، وتحصل على نقود إضافية. نظر كفتارو إلى ساعة الحائط، رأى أنها الساعة الحادية عشر ليلا، قال: لن أنام باكراً، سأذهب إلى الكازينو مرة أخرى، ربما أربح أكثر.

ذهب إلى الكازينو وبدأ اللعب على أحد الأجهزة الألكترونية، وبينما هو مستمتع في اللعب، و يربح رويداً رويداً، فإذا بتلك الفتاة التي ضاجعها ومعها واحدة ثانية واقفتان أمامه، وتنظران إليه نظرة احتقار. قالت الفتاة له: لماذا سرقت نقودي؟. لماذا سرقت حصيلة تعبي وجهدي؟، إن لم تعد إلي النقود الآن، فسوف أعلم الشرطة.

في تلك اللحظة رجعت الذاكرة بكفتارو إلى الماضي، عندما كان «ضبع الحارة» و لم يجرؤ أحد التكلم معه، حتى شرطة المدينة كانوا يتحاشونه، الآن. مجرد عاهرة تهدده بالشرطة، لكن مع الأسف هو الآن خارج مدينته. خارج الحدود، في أوربا، حيث القوانين الصارمة تحكم الإنسان. قرر ألا يخلق أية مشكلة مع الفتاة. الفتاة رأت

كفتارو سارحاً، ضربت بيدها على كتفيه وقالت له: هيه، إلى أين ذهبت؟. هيا أعطني نقودي!.

مد كفتارو يده إلى جيبه وأخرج النقود ليعطيها إياها، كانت يد الفتاة أسرع لتخلص النقود من بين يدي كفتارو، لتمضي مع صديقتها بعيداً...

نظر كفتارو إليهما وقال في نفسه:

الحق معكما. ليس باستطاعة المرء أن يسرق في كل الأماكن، وأنا الديك الذي كان يصيح على مزبلته ونافشاً ريشه، لا يستطيع هنا مقارعة مجرد عاهرة.

* * *

- كفتارو: اسم حيوان الضبع باللغة الكردية.
- حارة قدوربك: احدى حارات مدينة قامشلو (القامشلي) الشهيرة والقديمة.
- شنتيانة: سكين طويلة تشبه السيف، لينة، تُربط على الخصر كما الزنار.
- خوة: أخذ المال من الناس بالقوة.
- كرخانة: بيت الدعارة.
- جب فرنسا: منطقة في قامشلو قريبة من حدود مدينة نصيبين التركية. حفر هذا الجب أيام الاحتلال الفرنسي لسورية.
- نهر جغجغ: النهر الجاري في وسط مدينة قامشلو.
- الكورشمه: عملية فتح الحدود بين المناطق المجاورة لدولتين، لتبادل الزيارات والتسوق، دون حاجة المرء لتأشيرة الدخول.
- قجغ: الطريقة غير القانونية، التهريب.
- دولميش: ميكرو باص صغير باللغة التركية.

العشق المتجدد

ريبر شاب في العشرينات من عمره، لازال يعيش حالة المراهقة كبقية شباب جيله، متحمس، يملك عنفواناً صاخباً، كله طاقة وحيوية. ينطبق عليه المثل الكردي القائل: «بإمكانه ان يسلق البيض تحت إبطه». دلالة على القدرة الهائلة التي كان يملكها في جسده. مع هذا ريبر كان يتمتع بصفات حميدة، فهو خفيف الظل، سريع الحركة، أنيق، يهتم بمظهره كثيراً، ثيابه مكوية دائماً، شعره ممشط ومسشور وملمع في كل الأوقات...

عندما كان ريبر يسير في شوارع قامشلو، كانت الفتيات تشرن إليه بالبنان، يتهامن مع بعضهن البعض ويقلن: ها هو قادم، هاهو بكل أناقته وترتيبه.

يراقب ريبر تحركاتهن، يجاملهن في بعض الأحيان بنظراته الكازانوفية وبابتساماته السحرية التي يرسلها من تحت خطوط شاربيه. فتيات الحارة على السواء كورداً وعرباً، كن يتوددن إليه، ويحاولن عرقلته في الشارع. كن يعرفن مواعيد خروجه من البيت بشكل يومي، وخاصة عندما كان يذهب باتجاه متجر أبيه. كن يحاولن لفت نظره، بالمقابل كان ريبر يتكابر عليهن أحياناً ويمازحهن أحياناً أخرى،.. وخاصة بعد أن وضع واحدة أو اثنتين منهن في جدول اهتماماته، فيذهب تركيزه باتجاههما أكثر من غيرهما.

في صيف 1979 كانت الحدود بين سوريا والعراق مفتوحة، وكانت التجارة على قدم وساق بين الدولتين، يأتي العراقيون إلى سوريا من أجل الزيارة والتسوق. ريبر يعلم بهذا الأمر، ويعرف أن بعض زبائن والده من العراقيين. في أحد الأيام، وبينما هو في طريقه إلى داخل المتجر، رأى عائلة عراقية جالسة تتسوق عند

والده، من بين أفراد تلك العائلة فتاة في مقتبل العمر، لا يتجاوز عمرها السبعة عشرة عاماً. فتاة جميلة، عليها قوام ممتليء، جذابة، يشعر المرء بأنوثتها من النظرة الأولى، فتفاصيل جسدها تشدو من قوة عذوبتها.. تبسمر ريبر في مكانه، وذهب إلى عالم آخر، وأصبح يقارن بينها وبين فتيات الحارة. اقترب منها رويداً رويداً، حاول أن يكلمها. لاحظت أم الفتاة حركات ريبراتجاه إبنتها، أبدت ارتياحها بعد أن عرفت أنه إبن التاجر.

استغرق بقاء هذه العائلة في المتجر حوالي أربع ساعات، في هذه الفترة وقع ريبر في غرام الفتاة، تبادل كلاهما الإعجاب من خلال النظرات والكلام القليل، و كأنهما يعرفان بعضهما البعض منذ عشر سنوات. عاش ريبر تلك اللحظات بكل أحاسيسه، كاد أن يصبح له جناحان من الفرح،.. سألها عن اسمها. قالت له «هناء». رد ريبر؛ هنيئاً علي هذا الجمال الحنطاوي المائل إلى السمار، إنك تذكرينني بأغنية كردية، حيث تقول: «لا أبادل السمراوات بالبيضاوات أو الشقراوات». فأنت سمراء الحب وجماله،.. آه لو كتبت فيك قصيدة، لأصبحت ملحمة شعرية تضاهي الملاحم الأخرى في الجمال والبهاء، كنت سأدون فيها كل تفاصيل جسدك، وكل تفصيلة كانت ستكون على شكل قصيدة طويلة، أبياتها مكتوبة بماء الزهر، وحروفها كما أغصان القرنفل،... رفعت هناء يدها له، دلالة على أن يتوقف وقالت له: على مهلك ياعاشق، أنت هنا في المتجر، خائفة على كلامك الجميل أن يفسده هواء التجارة،... ابتسما معاً وسكتا...

مرت أربع ساعات على علاقتهما، وكأنها أربع دقائق، لم يشعرا بها،.. لاحظ والد ريبر اهتمام ابنه بالفتاة، كما شعرت أم هناء بفرح

ابنتها مع الشاب. نظر والد ريبر إلى أم هناء وقال: كم هما جميلان وهما يتحدثان بهذه الحرارة! هزت الأم رأسها بعلامة الموافقة، وقالت: نعم إنهما جميلان وسعيدان بما يقولانه لبعضهما البعض.

اتجهت الأم نحو ابنتها وقالت: هيا، احملي معي هذه الأكياس لنذهب. ودعت هناء «صديقها» ريبر. ودّعا بعضهما البعض وكلاهما في قمة العشق، لا يريدان أن يفترقا،.. ودّعها ريبر بغصة في حلقه، وضع يديه على رأسه، كأنه يناجي نفسه:

يا إلهي ما الذي حصل؟ ظل يتابعها إلى أن اختفت من أمام عينيه.

استفاق ريبر من حلمه الجميل، ليعود إلى مشاغبات الحارة وقصصهم الغرامية،.. لكن تأثير هناء عليه في هذه المدة القصيرة، جعل منه شخصاً آخر،.. لم يعد له المزاج حتى أن يمازح أية من فتيات الحي.

مرت سنوات، تزوج ريبر من إحدى فتيات الحارة، أصبح لديه أولاد، عمل واجتهد، أسس بيتاً، أصبحت الأيام عنده مكررة، دخل الروتين إلى حياته، كان روتيناً قاتلا، بالرغم من مغامراته الجانبية مع الجنس اللطيف.

ريبر بالرغم من مرور تلك السنوات، وبالرغم من حبه لزوجته وأولاده، ومغامراته الثانوية، إلا أن صورة هناء لم تكن تفارقه. يتذكر عشقه القصير والعميق، لم يغب من باله تلك اللحظات التاريخية.

في أحد الأيام قرر ريبر أن يترك البلد، ويهاجر إلى أوربا، لم يخطر بباله أنه سيلتقي بتلك الفتاة في مكانه الجديد..

في أوربا التقى بأناس كثر، تعرف على أشخاص من جنسيات مختلفة، من ضمنهم أصدقاء عراقيين. في إحدى المرات وبينما كان في زيارة أحدهم، تعرف من خلال صديقه على عائلة عراقية مكونة من زوج وزوجة وطفل، كانوا أيضاً في زيارة لنفس الصديق. بعد التعارف والحديث في مواضيع مختلفة وكثيرة، لفتت زوجة الضيف نظر ريبر. ريبر أيضاً كان ينظر إليها، وكأنه يعرفها من قبل. يصمت ويردد في داخله:

هل معقول أن تكون هذه هي تلك الفتاة التي التقيت بها قبل خمسة وعشرين عاماً؟..إنها تحمل نفس الملامح وتحمل نفس الاسم «هناء». لكن ريبر حاول أن يسيطر على مشاعره ويكبت أحاسيسه حرصاً واحتراماً لصديقه وضيوفه، لكن نظرات المرأة له كانت تحيره، وتدخله في متاهات التاريخ.

بعد مرور عدة أشهرعلى هذا اللقاء، أخبره صديقه ذات يوم، خبراً غير متوقع، قال له: هل تتذكر ياريبر تلك العائلة التي كانت في زيارتي وتعرفتَ عليها؟. رد ريبر بسرعة، نعم أتذكرها، وأتذكر اسم الزوجة «هناء»، أليسوا هم من تقصدهم؟ رد الصديق تماماً، زوج هناء توفي بجلطة قلبية، شيء يثير الشفقة عليها وعلى طفلها، فهي في عز عمرها بعد. لقد أصبحت أرملة ولا معيل لها. لقد علمت مؤخراً أنها تحتاج للمساعدة في تدبير أمور الإقامة.

صمت ريبر لبرهة، بعدها قال:

سآتي إليكم، لكي أقدم واجب العزاء لها، وسأحاول أن أساعدها في هذا الأمر. التقى ريبر بهناء، قدم لها العزاء وعرض عليها خدماته. تبادلا أرقام هاتفيهما. بعد فترة وجيزة من رحيل

زوجها، اتصلت هناء بـ ريبر وطلبت مساعدته في أمورالإقامة. لم يتردد ريبر ثانية في طلبها، وقال لها:

تكرمين، سأكون عندك بعد ساعات. جاءت فرصة ريبر على رجلها، لكي يقص على هناء حكاية حبه القديم، ومدى التشابه بينها وبين حبيبته القديمة. لما التقيا. قص عليها حكايته القديمة. لم تستغرب هناء من القصة، وردت عليه، كأنني عشت نفس الحالة عندما كنت صبية، وكان لأهلي زيارات عدة إلى مدينة قامشلو للتسوق وزيارة بعض الأصدقاء،.. حتى إحساسي اتجاهك فيه شيء غريب، كأنني أعرفك منذ زمن طويل. بعد هذا الحديث المطمئن، نظر كلاهما إلى الآخر وقالا معاً:

هل يعقل ان يكون قدرنا قد جمعنا ثانية؟. التقينا في كردستان سوريا وبعد كل هذه السنوات ها نحن نلتقي هنا...!

صمت كلاهما قليلا، و بدأا يفكران. الأمر هذه المرة مختلف، هناء إمرأة أرملة ولديها طفل، وريبر رجل متزوج وله حياته. صحيح أن كليهما يعيشان في أوربا، لكن القوانين هنا صارمة، وتعدد الزوجات ممنوع، أي لا يمكن أن يتزوج ريبر من هناء.

تسللت أفكار وتساؤلات غريبة إلى رأس ريبر، هل سيعود لحبه القديم، أم سيبقي على زوجته؟ لكن هناء أمام عينيه بكل قوامها الجميل، وهي وحيدة الآن. قلب ريبر عليها، لا يتصور أن تكون هناء لغيره. بالمقابل، هناء ترى في ريبر الرجل المناسب الذي يشعر بها وفيه مواصفات رائعة، رجل مستقر مادياً ومعنوياً، وسيم، لديه إمكانات كثيرة لتوفير حياة مناسبة لها ولطفلها.

مشاعرالاثنين تجاه بعضهما البعض كانت في أوجه، هنا لا مكان للعقل أن يفكر، في ذاك النهار استعاد الاثنان قصة عشقهما الخيالي إلى الواقع،.. من يومها دخلا عالم الحب والجنس، عاشا قصصاً غرامية مذهلة، غير موجودة حتى في الأفلام الهندية.

ظلت علاقة ريبر بـ هناء سرية لفترة طويلة، يتردد عليها بين حين وآخر، يسافران معاً داخل البلد وخارجه، وكأنهما زوجان. عاشا أجمل لحظات حياتهما في هذا العمر، قصة حبهما كانت شبيه بقصة ليلى ومجنون وقصص الحب الأخرى، حتى أنهما سافرا معاً إلى بلاد روميو وجوليت، لكي يقلدان الحالة العشقية هناك، كان قد أصابتهما مراهقة الخمسين..

على الرغم من أنهما كانا سعيدين، إلا أن الخوف كان يلازمهما. وكانت هناء تردد أحياناً على مسمع ريبر، العلاقات الجميلة عمرها قصير.

مرت أشهر وسنوات على هذه العلاقة، إلى أن جاء اليوم الذي سمعت فيه زوجة ريبر بعلاقة زوجها مع هناء. سببت مشاكل كبيرة لزوجها، حاولا أن ينفصلا، عاش ريبر فترة قصيرة لوحده بعيداً عن زوجته وعن عشيقته.

في تلك الفترة، راجع ريبر نفسه وأعاد أسطوانة الأيام التي مر بها، منذ أول يوم عندما التقى هناء في متجر والده، عندما كان شاباً يافعاً، إلى اللحظات الأخيرة وحبه في الخمسينات من العمر. كان يقول لنفسه:

عندما كنت شاباً، كانت عاطفتي تتغلب على تفكيري وعقلي، لكن الآن، علي أن أستخدم العقل أكثر من العاطفة، بالرغم من أن

هناء جميلة، وفيها مواصفات رائعة، لكن زوجتي لا تستحق هذا مني، صحيح أنني جددت الحب مع هناء، لكني على يقين أن اللحظات الأولى التي عشت معها في الساعات الأربع، عندما كنت شاباً تضاهي كل هذا الحب الذي عشت معها خلال هذه الفترة.

جريسكة

كان ميرزا حسين رجلاً مجتهداً، يكد بشكل يومي، ينوع في مهاراته المهنية، يعمل بدون كلل، إلى أن أصبح من التجار المعروفين في بلدته عامودا، وأصبح من أصحاب الأموال والمحلات التجارية، فكان عنده محل لتجارة الأقمشة، وآخر لبيع الخشب ومواد البناء، والثالث ورشة للخياطة... كبرت تجارته رويداً رويداً، إلى أن أصبحت عامودا صغيرة أمام حجم حركته التجارية، لذا كان عليه ان يفكر بمكان أو مدينة أكبر لتسويق بضائعه. بالمقابل كانت قامشلو المدينة القريبة من عامودا في الخمسينيات من القرن المنصرم في ازدهار وتوسع يومي. كانت المدينة تتوسع شرقاً وغرباً، كون الشمال كان محجوزاً للجارة نصيبين، وفي الجنوب كانت القرى المتناثرة قليلة السكان. قامشلو أو قامشلية، كما كانت تسمى وقتذاك، مفتوحة على المدينتين نصيبين من الشمال والموصل من الشرق، لذا كانت التجارة والسياحة الوافدتان من تركيا والعراق على هذه المدينة في أوجها.

فكر ميرزا حسين ملياً أن ينتقل بشكل نهائي إلى قامشلو، ويأخذ أمواله معه ليستقر هناك. عرض الفكرة على زوجته سينم خان، وحاول أن يقنعها أن تنتقل معه إلى المدينة الجديدة، كونها في تطور يومي والتجارة هناك أربح و أسرع. رفضت زوجته الفكرة، فهي لم تستمتع بعد بالجاه الذي فيه أمام جاراتها، فزوجها يتربع على الأموال والمحلات التجارية، فتتكابر على الجارات والصديقات المقربات منها، وتتباهى بأنها زوجة التاجر ميرزا حسين، كانت تشعر بأنها في أوج سعادتها في تلك الفترة، وأن كل الذين يحيطون بها ويترددون عليها يحبونها ويتلمسون عطفها وبركاتها.

أخيراً، قالت سينم خان لزوجها: بإمكانك أن تنتقل مبدئياً لوحدك إلى قامشلو، وحاول أن ترتب أمورك التجارية والمالية، وأن تزورنا بين الفينة والأخرى، إلى أن تستقر بك الأمور هناك، سأنتقل أنا وأولادي لعندك.

لم يتردد ميرزا حسين لحظة في عملية النقل، حاول في فترة قصيرة أن يجمع أمواله ويصفي حساباته في عامودا، ويتجه إلى قامشلو. بداية اشترى محلاً تجارياً، ومن ثم منزلاً في حي قدوربك، وبدأ عمله بجد. فتح الله باب الرزق عليه، وأصبح الزبائن ينهالون عليه من كل حدب وصوب. لم يهتم ميرزا حسين بالزبائن المحليين من أهالي قامشلو وضواحيها فقط، بل أصبح عنده زبائن من كرد تركيا والعراق، بالإضافة إلى بعض عرب الموصل.

عقد ميرزا حسين صداقة مع أحد التجار الكرد في تركيا، وكان يدعى محمود أوزل، صداقتهما كانت مميزة، مجرد أن يكون محمود في قامشلو، يكون ضيفاً عند صديقه ميرزا حسين، يتاجران معاً، يقضيان أوقاتاً جميلة مع بعضهما البعض. بعد الانتهاء من العمل اليومي، يتعشيان دائماً في المطاعم الفخمة. ذات مرة سأل محمود صديقه ميرزا حسين: لقد سئمنا من أكل المطاعم، لماذا لا تستقبلني في بيتك لنأكل طعاماً ساخناً من يديّ زوجتك؟.

رد ميرزا حسين: زوجتي وأولادها يعيشون في بلدة عامودا، أزورهم كل أسبوع مرة واحدة، لتأمين متطلباتهم، حالياً أعيش وحدي هنا. لذا نأكل ونشرب في المطاعم.

فكر صديقه محمود لبرهة، واقترح بعدها عليه فكرة، بعد أن سمع منه أنه يعيش لوحده في قامشلو، وقال له: لماذا لا تتزوج امرأة

ثانية، واحدة هنا، وواحدة هناك؟ لقد أنعم الله عليك بالمال الكثير، وأنك رجل غني ووسيم. الكثير من النساء يتمنين أن يصبحن زوجات لك، وبمقدورك أن تتزوج أكثر من واحدة، وتعيل أكثر من عائلة.

بدأت ضربات قلب ميرزا حسين تزداد فرحاً، وكاد قلبه يخرج من صدره، عندما شم رائحة العشق تحوم حول أنفه، انتعش من كلام صاحبه، وزاد إيمانه برجولته أكثر. رد على صديقه مازحًا:

هل تعرف إحدى النساء الجديرات بالزواج؟.

تمعن محمود في صديقه كثيراً، وتلمس رغبته الشديدة في هذا الموضوع، فقال: نعم!. لدي بنت أخ، جميلة جداً، تشبه الجورجيات، شقراء، وعيناها عسليتان، وصغيرة في العمر، إذا ما رأيتها ستجن من حسن جمالها. في المرة القادمة سأجلب لك صورة لها معي، وبإمكانك ان تقرر بعدها. ومازحه أيضاً وقال: لكنني خائف عليك من الجنون، عندما ترى صورتها سيغمى عليك، كيف وإذا رأيتها في شكلها الحقيقي...!

بعدها بفترة جلب محمود صورة لابنة أخيه وأعطاها لميرزا حسين، عندما نظر ميرزا للصورة كاد حقاً أن يُغمى عليه، أصبح كعاشق خجه من أول نظرة. قال لصديقه: هل من المعقول أن تكون صاحبة هذه الصورة فتاة حقيقية؟. إنها ملاك منزل من السماء، أنا موافق، وأطلب منك أن ترتب أمور زواجنا بالسرعة الممكنة. مازحه محمود قليلاً، وقال: عليك أن تدرك ياصاحبي أن مهر بنت أخي كبير، فهي ابنة حسب ونعمة وعز، عليك بالكرم وصرف المال الكثير لكي تنالها. وضع ميرزا حسين يده على صدره وقال:

أنا جاهز لكل ماتطلبونه، مستعد ان أدفع مئة ليرة ذهبية لقاء مهرها. وبالفعل كلف زواج ميرزا حسين من جريسكة، بنت أخ محمود مايزيد على مائة ليرة ذهبية رشادية.

أحب ميرزا حسين وجريسكة بعضهما البعض، عن طريق الصور، قبلل أن يكونا زوجين في المستقبل، بالرغم من أن ميرزا حسين كان يكبر جريسكة بخمسة وعشرين عاما، فجريسكة كانت في أول عمرها، فهي لم تتعد الثامنة عشر من عمرها، و ميرزا حسين كان قد تجاوز الأربعين ربيعاً.

ميرزا حسين لم يكن فقط غنياً، بل كان رجلا بكل معنى الكلمة. أجل. لقد كان وسيماً، أنيقاً، رشيقاً. الكثير من النساء كن يعشقنه، ويتمنين أن يكن شريكات لحياته، لكنه لم يكن يرضى أن تكون أية واحدة شريكة له.

عندما وصلت جريسكة إلى قامشلو، مكثت عند منزل أحد أقاربها عدة أيام، قبل أن تذهب إلى بيت زوجها ميرزا حسين. وقتها اجتمع عدد من أقاربها واعترضوا على زواجها من ميرزا حسين، وأقنعوا في الوقت ذاته عددا من شبابهم ليختار أحدهم جريسكة بدلاً عن عريسها «الكبير» في العمر. رفضت جريسكة عروضهم وفكرتهم، وقالت:

إن والدي وعمي موافقان على هذا الرجل، وأنا هنا لأكون له، فهو نصيبي ولن أكون لغيره.

تزوج ميرزا حسين جريسكة وزاد عشقه لها، خاصة بعد موقفها الجبار في مواجهة أقاربها وعروضهم المغرية. قضيا شهراً

من العسل معاً، لكن فرحة العروسين لم تدم طويلا. وصل الخبر إلى سينم خان، زوجة ميرزا حسين الأولى. وبمجرد سماعها بزواج ميرزا حسين من امرأة ثانية، حملت أولادها وعفشها و جاءت إلى قامشلو، وقالت لزوجها:

لم يعد لنا شيء في عامودا، جئنا لنعيش معك ومع زوجتك الجديدة!.. كانت سينم خان تقول هذه الكلمات، وهي تغلي في داخلها من القهر، كانت تشبه تنوراً من الجمر.

ميرزا حسين قدر وضع زوجته سينم، واحترم إرادتها، فهي أم أولاده. لقد عاش معها في السراء والضراء، حاول أن يرفع من شأنها أمام زوجته الأولى، فمنحها وظيفة الإشراف على إدارة بيتها، وبيت ضرتها جريسكة. وبذلك أصبحت جريسكة تحت رحمة سينم خان دون أن يتعمد ميرزا حسين في هذا الأمر الذي حدث عفوياً، بل كانت نظرته في ذلك، أن سينم خان كبيرة في عمرها ومعرفتها، بينما جريسكة لازالت شابة صغيرة وخبرتها في أمور الحياة قليلة.

كان هذا الجو غريباً على جريسكة، فهي كانت مدللة والديها، وأصبحت فيما بعد مدللة جدها وجدتها، بعد أن فصلت والدتها عن أبيها، لم تكن محرومة من أي شيء، فهي سليلة عائلة ميسورة، تتذكر أيامها الماضية، في المدرسة، الحارة، الطقوس التي تربت عليها، طريقة لباسها ونوعيتها،.. لكنها اضطرت أن تعيش واقعها الجديد.

حاول ميرزا حسين أن يؤثر على جريسكة ويغير الكثير من نمط حياتها السابقة، غير ملابسها العصرية وحاول أن يفهمها بأن العائلة تملك بعض العادات والتقاليد الخاصة، وعليها التقيد بها.

مع الزمن حولها إلى صورة طبق الأصل عن زوجته سينم، فتحولت جريسكة من فتاة مدنية منفتحة إلى فتاة ملتزمة في بيئة محافظة نسبياً.

كانت جريسكة دائماً في شوق وحنان إلى أيامها الماضية، بالرغم من أن زوجها كان يلبي جميع طلباتها، وفي بعض الأحيان يفضلها على زوجته الأولى، لكنها لم تكن سعيدة في حياتها المشتركة مع ضرة، وزوج كل وقته في عمله، بعيداً عنها، فكانت تشتم والدها وعمها على هذا الزواج.

أصبحت جريسكة، الفتاة المدنية، بين أيدي سينم خان قروية بامتياز، ترعى الحيوانات، تذهب إلى البرية لتجمع القش والأعشاب، تلبي كافة أوامر ضرتها لكي تتجنب المشاكل والعراك معها، وسينم المعروفة بخلق دائم للمشاكل بسبب ومن دون سبب. جريسكة الصبية اليافعة والمعروفة بجمالها الذهبي، كانت معرضة دائماً لمضايقات الشباب والرجال، عندما كانت تذهب وحدها إلى البرية لجمع القش والعشب لحيوانات سينم خان، ولكونها قوية، كانت تدافع عن نفسها وشرفها بصلابة وتتحدى المصاعب. في بعض الأحيان كانت جريسكة تعترض على مطالب ضرتها سينم خان، وتقول لها بأنها ليست مستعدة دائماً للذهاب إلى البرية لجمع الأعشاب لحيواناتها، سينم خان بدورها كانت تشكوها إلى ميرزا حسين، وهكذا كانت تخلق المشاكل. كانت جريسكة واعية، تحاول أن تتجنب هذه النوعية من المتاعب، لكن في الوقت ذاته كانت تعاني من الزعران الذين يعترضون طريقها.

في يوم من الأيام، لم تعد جريسكة تتحمل هذا الوضع، فذهبت إلى زوجها، وقصت عليه عن عملية جمعها العشب لمواشي البيت ومضايقة الشباب لها، وطلبت منه بأن تكف زوجته سينم من هذا الطلب، وإلا ستحدث أشياء هي وهو بغنى عنها.

فهم ميرزا حسين مغزى دفع سينم خان لجريسكة إلى البرية، وفسرها على الشكل التالي:

إنها تريد أن تبعدها عن البيت أولاً، وأن يحدث لها مكروه في البرية ثانياً. فقال لزوجته سينم:

عليك أن تتوقفي عن إرسال جريسكة إلى البرية لجمع العشب والقش لحيواناتك، ليس بإمكانك إجبارها على أي شيء لا تريده، أما إذا قامت بأي عمل بإرادتها، فلا ضير، وإلا فليس لك عليها سلطان كي تأمريها بمزاجك. لن أقبل أبدا أن ترسليها لوحدها إلى أي مكان آخر، فهي صبية ومعرضة لأي مكروه، في المرات القادمة إذا أرسلتها إلى أي مكان فلتكن إحدى بناتك أو «كناتك» (زوجات أولادك) بمرافقتها، وبالنسبة للحيوانات، فاعتباراً من الغد سأرسل لك راعياً ليأخذ الأغنام والماعز إلى البرية، وننتهي من قصة جمع العشب والقش.

غضبت سينم خان عندما سمعت هذا الكلام من ميرزا حسين، وأصبحت تتمتم، وتقول:

نعرف أن زوجتك صغيرة وجميلة، لا تخف عليها كثيراً، فلن يأكلها الضبع.

مرت أيام عصيبة على جريسكة، كانت تشتاق إلى بيت ذويها في كردستان تركيا، كانت تزور بعض أقاربها في قامشلو سراً، كون

ميرزا حسين كان قد اتخذ موقفه منهم عند زواجه منها، ولم تعجبه تصرفاتهم في تلك الفترة. بينما جريسكة كانت تقتنص الفرص لتزورهم، بحجة جلب الماء من النهر أو من آبار أحد الجيران، وكانوا بدورهم يستقبلونها، ويؤمنون لها الماء لكي تبقى عندهم فترة أطول.

أنجبت جريسكة أربع بنات و صبياً من ميرزا حسين،عندما أنجبت الصبي بعد ولادة ثلاث بنات، فرح ميرزا حسين كثيرا وأهدى القابلة (الداية) ليرة فضية على بشارتها. سمعت وقتها سينم خان بالحدث وخلقت منها مشكلة كبيرة لميرزا حسين، وقالت؛ لقد أنجبت لك ستة شباب، لم تفرح بمجيئهم كما فرحت لابن جريسكة. حاول ميرزا حسين أن يقنعها بطريقته الدبلوماسية الهادئة، ووعدها بشراء قطة ذهبية لها لتخفف من عصبيتها.

لم يهدأ بال سينم خان، أصبحت تضايق جريسكة في كل الأحوال، وتطلب منها كل عمل شاق وصعب. في أحد الأيام أرسل راعي ميرزا حسين خبراً إلى البيت، بان أحد الخراف في النزع الأخير من الحياة، وما عليكم إلا أن تأتوا لتأخذوه إلى البيت للذبح. طلبت سينم خان مباشرة من جريسكة بأن تذهب إلى الراعي لجلب الخروف المريض. أجبرت جريسكة على هذا العمل، فأخذت ابنتها الكبيرة معها، حاولتا معا أن تجلبا الخاروف المريض من البرية، ولأن بشرة جريسكة ناعمة، شديدة البياض، فقد أصبحت معها حساسية من صوف الخاروف المريض وأصبح كل جسمها محمراً.

استخدمت جريسكة معرفتها العلمية، لكي تتخلص من آثار الحساسية، طلبت المساعدة من إحدى كنات ضرتها، على أن تجلب

بعض الرماد مع قليل من الملح، لكي تدهن بها جسمها، وبالفعل دهنت جسمها بالرماد المملح وبعد فترة وجيزة تخلصت من آثار الحساسية والاحمرار.

تعجبت سينم خان وميرزا حسين من هذه الوصفة، والمعرفة التي تملكها جريسكة. كانت سينم تقول في داخلها؛ توقعت أن تكون نهاية جريسكة بعد اصابتها بهذه الحساسية، لكنها تخلصت منها بسهولة، فهي كالجنية التي تجد دائماً مخارج لها من تحت الرماد.

لم تفرح جريسكة كثيراً بأولادها، بالرغم من أن ميرزا حسين كان قد خصص لها قسماً من المنزل، لتكون مستقلة عن سينم خان، لكن بعد كل هذه السنوات من القهر والخلافات مع ضرتها وكناتها، اللواتي عملن على خلق جبهة ضدها، ولكون جريسكة كانت من نوعية النساء اللواتي لا يردن المشاكل، ولكون تربيتها لا تشبه أخلاق المحيطين بها، فكانت تحبس القهر في داخلها، ولم تحاول أن تشتكي لميرزا حسين عن مشاكلها مع أفراد العائلة.

في أحد الأيام مرضت جريسكة، كانت تعاني من آلام الكليتين، ولكونها كانت كتومة، ومن النوع الذي لاتقول شيئاً عن صحتها لزوجها، فقد تفاقم مرضها، ولم تعد تتحمل الوجع، بعد أن رأت أنها تتبول دماً. أخذها ميرزا حسين إلى عدة أطباء، لم يستطيعوا تشخيص مرضها بشكل دقيق، توقع أحدهم بأن يكون لديها نوع من مرض «التيفوئيد»، وأعطاها دواءً لهذا المرض. بعد فترة قصيرة ازداد عليها المرض، واختلجت هذه الأدوية في جسمها بشكل سلبي كمادة سامة. حاول ميرزا حسين أن يضع كل إمكاناته لمعالجة

زوجته، لكنه لم يفلح، وكأن القدر أن تغادر جريسكة الحياة، وهي لم تكتمل بعد عقدها الثالث.

رحلت جريسكة وخلفت وراءها خمسة أطفال، هم في بدايات أعمارهم، كالفراخ التي تفقد أمها، رحلت وزرعت هماً كبيراً في داخل زوجها ميرزا حسين.

حتى فترة لابأس بها، لم يستطع ميرزا حسين استيعاب ما حدث وفقدانه لجريسكة، تلك النجمة التي أفلتت باكراً في حياته، فهي لم تعش معه أكثر من اثنى عشر عاماً، رحلت، وخلدت خمس ذكريات وراءها، أطفالا أصبحوا سلواناً لأبيهم.

تعهد ميرزا حسين بعد رحيل نجمته جريسكة ألا يتزوج للمرة الثالثة، وفاءً لها، وحرصاً على أولادها الخمسة، وليتفرغ لهم ويرعاهم كأب وأم في الوقت نفسه.

وحقاً فقد بقي ميرزا حسين على عهده حتى الممات، حاول قدر الإمكان أن يرعى أطفال جريسكة ويربيهم أحسن تربية، ويعلمهم أفضل تعليم، بالرغم من أنه كان لديه عشرة أطفال من زوجته الأولى سينم خان، لكنه كان يعوض أولاد جريسكة بحنان زائد لملء الفراغ الذي تركتها أمهم. وهكذا فإنه حتى ممات ميرزا حسين فقد كان همه الأول والأخير أولاد جريسكة.

بائع الحليب والأرملة الصغيرة

بعد مرور عام على انقطاع أخبار زوجها، الذي انتظرت عودته طويلاً، لكن مع الأسف لا خبر ولا من يحزنون.. اقتنعت أخيراً أن زوجها قد قتل في ظروف غامضة.

يوماً بعد يوم كانت الزوجة تشعر بالفراغ. الوحدة تحيط بها، السكون يخيفها ويحبطها، في بعض الأحيان تعود بها الذاكرة إلى الوراء، وتذكرها بلحظات جميلة كانت تقضيها مع زوجها، وفي بعض الأحيان تتذكر أيام شبابها وعزوبيتها ومغامراتها مع شباب الحارة، كانت هذه اللحظات تمر أمام عينيها سريعاً.

لازالت الزوجة في ريعان شبابها، وعمرها لم يتجاوز بعد الثلاثين ربيعاً، ولازال عدد المعجبين بها كثر، بالرغم من تجربتها الأولى. هناك من يتقدم إليها من أجل الزواج، أغنياء، متوسطو الحال، شباب، شيوخ،.. رجال من كل الانواع.

كانت تقول: إن فكرة الزواج لا تستهويني الآن، لكنها كانت تعود وتسأل نفسها، لماذا؟. هل يا ترى لأنني أحب أن أكون وفية أكثر من اللازم لزوجي المغدور، الذي ذهب ولم يعد، أم أنه الغرور؟. أشعر بأنني ظالمة اتجاه الخطّاب، الذين يعودون خائبي الأمل، عندما يسألونني عن الزواج.

المهم عندي، أنني قررت ألا أفكر في هذه القضية البتة. كوني لا أحتاج أي شيء، المال موجود، حريتي بيدي، لا حمو أو حماة يتحكمان بي.

كان الزوج قد ترك لها الكثير من المال، بالإضافة إلى أرض زراعية واسعة المساحة. في بعض الأحيان كانت الأرملة تشرف على

أرضها وتخاطب القائمين على زراعتها وترشدهم، لكي تشعرهم بأن هذه الأرض لها صاحب وحريص عليها.

كان الزوج كان قد ترك لها أيضاً سيارة حديثة. حاولت الأرملة في فترة قصيرة أن تقودها. وتمضي بها في المدينة لكي تفرّج عن نفسها..

مرت سنوات والأرملة تعيش في روتين ممل، حياتها في كل هذه السنوات كنسخة كوبي، لا جديد في حياتها، ملت من الأشياء التي تملكها، ملت من السفر وحدها، أصبحت تكره الأماكن من كثرة زيارتها.

في يوم من الأيام قررت أن تحدث انقلاباً جذرياً في حياتها، لكي تكسر جدار هذا الروتين القاتل، ولا تدخل في دوامة الأفكار وتنسى نفسها أنها موجودة في هذا العالم، فوقفت أمام المرآة عارية تتلمس جسدها الغض، تمسك بردفيها وصدرها، تحاول أن تشعر بجمالها وأنوثتها. لحظتها تذكرت قول الكاتب الكوبي «ديزينوس»، عندما كان يقول عن زوجته:

(صحيح أن زوجتي ليست من الجميلات، لكنها تملك بعض «القطع اللحمية» التي ينشد إليها المرء. إنها مغزلية الجسد، أجمل ما فيها مؤخرتها).

تمد الأرملة يدها مرة ثانية إلى ردفيها وتقول: أنا أيضاً لدي ردفان جميلان، وصدري يشع منه وهج الحياة، فأنا لست أقل جمالاً من خجى رسول عشيقة سيامندي سليفي، أملك قداً رفيعاً و شعراً طويلاً كثيفاً، وعيوناً واسعة، وفماً جميلاً. إن الله قد رسمني

حسب المواصفات التي يحبها. أمي كانت تقول لي دائماً: إنك تشبهين البيضة المسلوقة المقشرة!.

صحيح أنها كانت مرغوبة جداً عند الرجال، لكنها لم تعط لأحد منهم المجال للتقرب منها. كان الناس المحيطون بها ينادونها بالجميلة، وبعضهم كانوا ينادونها بالحلوة، ويقولون لها: إنك قفير مليء بالعسل.

في ذاك اليوم عندما وقفت عارية أمام المرآة، تغيرت تلك الأرملة من امرأة هادئة متزنة إلى امرأة شبقة نارية. دخلت في قلق جميل، لم تعد تعرف ماذا ستعمل، بدأت برش العطر على جسدها، ثم على ثيابها، أحبت أن تسمع موسيقا رومانسية، أشعلت سيكارة تلو الأخرى، تذهب تارة إلى النافذة لتراقب المارة، ومرة على البلكونة لتتأمل السماء وزرقتها... رجعت إلى المرآة. تعرت مرة أخرى، نزعت حتى ورقة التوت عن جسدها. استلقت على السرير. التحفت بالشرشف، حضنت المخدة، رمت المخدة على الأرض. كاد هذا القلق الجميل أن يحرقها. فجأة سمعت صوت الباب، إيقاع الجرس كان ناعماً على أذنيها. قفزت من السرير، التقطت روبها ولفته على جسدها الغض، واتجهت نحو الباب وقالت: من؟.

جاء صوت شاب من وراء الباب يقول:

أنا، بائع الحليب!

لفت انتباهها صوت الشاب، وقالت لنفسها: هذا الصوت حنون، لا يشبه صوت القرويين الأجش. فتحت الباب بيدها الناعمتين، وقالت للشاب:

ادخل وضع الحليب في المطبخ.

تفاجأ الشاب من طلبها، ونظر إليها بشوق. لم تعد بؤبؤا عيناه تستقران في مكانيهما. نظر إليها من رأسها إلى أخمصها.. الأرملة لاحظت حركة الشاب وقالت في نفسها:

أعتقد أنه لم يلتق بجميلة مثلي في حياته. بائع الحليب لم يكن يشبه القرويين في ملبسه وتصرفاته، فهو شاب يملك ملامح جذابة، طويل القامة. يعمل في هذه المهنة التي ورثها عن أبيه، ففي كل صباح يجلب الحليب إلى الحارة ويبيعه للبيوت. كان صوته فيها نفحة حزينة، وخاصة عندما كان يصيح: حليب.. حليب.

كل سكان الحارة كانوا يقولون عنه: إن هذه المهنة لا تناسب هذا الشاب الوسيم، فهو اضطر عليها كون والده مريضا، ولم يعد بإمكانه العمل.

في ذاك اليوم، كانت الأرملة في غاية الشوق إلى أن يضمها هذا الشاب ويحملها بين يديه كما يحمل وعاء الحليب. وضع الشاب الحليب في المطبخ، وعاد لكي يخرج. لكنه نسي أن يجلب الوعاء الفارغ. كان قلقاً كما الأرملة، وكانت حاجته لها، كما حاجتها لشخص يناسبها.

قبل لحظات معدودات من خروج الشاب من منزلها، مدت الأرملة يدها إلى حزام الشاب، وجرته إلى غرفة نومها، كاد الشاب أن يطير من الفرح، لم يصدق أنه بين يديها، توسعت حدقتا عينيه إلى آخر اتساعهما. كادت عيناه أن تخرجا من محجريهما، لاسيما عندما خلعت الأرملة روبها، ووقفت أمامه عارية.

خلع الشاب هو الآخر ثيابه بسرعة البرق، ورمى بنفسه عليها كما النمر من شدة الهيجان. كلاهما كانا يملكان قدرة عالية من القدرة الجنسية. دخلا في لحظات حامية. كل واحد منهما أشبع رغبته الجنسية المكبوتة.

بعد ذلك. مدت الأرملة يدها إلى علبة السكائر. أخرجت واحدة وأشعلتها. وبدأت تدخن. بينما كان بائع الحليب مشغولاً بارتداء ملابسه. قال الشاب للأرملة وعلى استحياء: هل لكِ حاجة أخرى يا سيدتي؟.

ردت الأرملة وقالت: أنت والحليب!.

لم يصدق الشاب الكلام الذي يسمعه من هذا المرأة الجميلة. خرج بسرعة الضوء من بيتها. أغلق خلفه الباب وتوارى عن الأعين.

منذ ذلك اليوم، لم يعد بائع الحليب يأتي إلى الحارة، والأرملة باتت تدخل، مرة ثانية، إلى وحدتها وقلقها المخيفين.

«بوزو» من التدين إلى الإلحاد

عائلة «بوزو» ككل عائلات منطقة الجزيرة، وبشكل خاص أبناء مدينة قامشلو، في فترة الستينات وحتى الثمانينات من القرن المنصرم، كانوا منقسمين على أنفسهم من حيث «الانتماء الديني»، القسم الأول كانوا من أتباع الشيخ الخزنوي، والقسم الثاني كانوا من أتباع ومريدي الشيخ حقي. عائلة بوزو كانت حائرة أيضاً بين أن تتعاطف مع هذا الشيخ أو ذاك. الأخ الأكبر في العائلة كان من أشد مريدي الشيخ الخزنوي، كان يعمل ليلا ونهاراً على نشر«دعوتهم» بين الناس، يمجدهم ويتغنى بهم، لكسب أكبر عدد من المريدين لشيخه. الأخ الثاني لبوزو كان من أنصار عائلة الشيخ حقي، ينافس أخاه في الدعاية و نشر الأخبار الطيبة عن شيخه، لكنه كان قليل الحيلة، إذ لم تتوفر لديه الامكانيات الكبيرة كما أخيه من أجل الدعاية و نشر الطريقة. كل واحد منهم كان يريد من أفراد العائلة أن يكونوا من مريدي شيخه، بطريقة التودد كسب كل واحد منهم عدة أشخاص من أفراد العائلة إلى جانبه.

والد بوزو بالرغم من خبرته في الحياة وعمره المتقدم، وعدد المرات التي زار فيها بيت الله الحرام، إلا أنه كان معتدلاً في دينه، وكانت أفكاره متقدمة على أفكار أولاده، ينظر إلى كل شيوخ المنطقة باعتدال، دون التمييز بينهم، كان يبدي أحياناً تذمره من فكرة «المريدية»، لأنه كان يرى أن تعاليم الدين الحنيف وتطبيقها بالشكل الصحيح كافيان للإنسان أن يكون مسلماً حقيقياً. لم يكن يحب التمظهر في الدين، فهو لم يزر قرية تل معروف (قرية الشيخ الخزنوي) إلا قليلاً، وبنفس الوقت لم يزر قرية حلوة (قرية الشيخ

حقي) سوى مرة واحدة. كان الأب ينظر إلى أبنائه والمنافسة بينهم لجلب أكبر عدد من المريدين لشيوخهم نوعاً من الجنون.

ذات يوم قام الابن الأكبر بتحضير وليمة كبيرة في منزله لأبناء شيخه، كانت وليمة (مطنطنة)، صرف لأجلها أموالا كثيرة لإعداد مائدتها، و طلب من أهله أيضاً ان يأتوا جميعا إلى الوليمة وعلى رأسهم والده، لكي يلتقوا بأبناء الشيخ و يتبركوا بوجودهم و «يتوبوا» على أيديهم..

عندما رأى الأخ الثاني (مريد الشيخ حقي) هذا الصرف الباذخ وتهافت أفراد العائلة على منزل الأخ الأكبر والتودد إلى الشيخ الخزنوي، لم يعجبه هذا، وأصبح يشعر بنوع من الانهيار والتقهقر أمام «خصمه»،.. فأصبح يفكر «بمشروع» أكثر ضخامة وأشد لفتاً للنظر، لكي يسترجع هيبته وهيبة شيخه.

بعد فترة ذهب إلى والده وقال له: أتدري يا أبي أننا منحدرون من الأسياد، وكما تعلم أن عائلة الشيخ حقي هم أيضاً من الأسياد، البارحة، وأنا أتمعن في شجرة العائلة، لاحظت أن هناك صلة قرابة بيننا وبين عائلة آل حقي، فهناك فقط أب أو أبان ونكون عائلة واحدة، فنحن من نفس الفرع تقريباً. اقتنع الأب بكلام ابنه وقال له: طيب، ماذا بإمكاننا أن نعمل من أجل هذا الموضوع؟.

رد الابن وقال: الأمر بسيط يا أبي. سنعمل على دعوة آل حقي جميعهم إلى دارنا للعشاء، سنعمل على ترتيب مائدة تليق بهم، وبهذه المناسبة الكبيرة، بعد الأكل والشرب سنفاتحهم بهذا الموضوع ونناقش «صلة القرابة» بيننا و بينهم.

وافق الأب على اقتراح ابنه وقال له: توكل على الله ورتب الأمور كما تجب، حدد لهم موعداً، فأنا سأخبر بقية أفراد العائلة ليكونوا جاهزين لهذا الحدث الكبير.

تمت دعوة معظم وجهاء آل الشيخ حقي إلى الوليمة، كانت التحضيرات مدهشة. الأخ الكبير لم يكن لديه علم في هذا الموضوع، صدم من هول الحدث، أبدى قلقه وانزعاجه، كونه آخر من يعلم،.. كان مصدوماً بقدوم الشيخ حقي إلى منزل والده، وشيخه الخزنوي لم يزر داره بعد، كان يعتبر الحدث إهانة له، وخسارة كبيرة له ولشيخه مع عائلة والده.

الأخ الكبير كان معقداً دينياً، فجميع أفراد أسرته كانوا مميزين من حيث الملبس المحافظ، كان يتحكم بجميع تصرفاتهم، فمن المستحيل أن يرى المرء إحدى بناته مكشوفة الرأس، بسبب كثرة ضغطه على أفراد أسرته دينياً، دفع بأولاده إلى خدمة شيخه، حتى وصل الأمر بهم أن أثنين منهم فقدا الذاكرة نتيجة الهوس الديني.

الأخ الأكبر كان يرى في نفسه «وكيلاً» على الدين في منطقته، كان يحث أفراد أسرته والجيران والأصدقاء على التقيد بالدين وتعاليمه، يطلب منهم أن يزوروا «تل معروف» والتقرب من الشيخ والتوبة على يديه.

في أحد الأيام طلب من بوزو أن يحضر كلمة باسم «الشباب المسلم»، لكي يقرأها أمام الشيخ عزالدين الخزنوي، كون الشيخ سيأتي قريباً إلى الجامع الكبير في قامشلو وسيلقى خطبة هناك. قال لـ بوزو: يجب أن يرى «يابو» شيئاً مميزاً من عائلتنا! رد بوزو

عليه وقال: لا أعرف ماذا سأكتب في هذه الكلمة؟. قال أخوه: لا عليك، أنا سأقوم بهذه المهمة وما عليك أن تتمرن على قراءتها وتلقيها أمام الشيخ والجمهور.

كان بوزو خائفاً من ردة فعل أخيه الكبير إذا ما اعترض على الأمر أو رفض طلبه، فقال بصوت خافت: حسناً، جهز الكلمة لكي أتمرن على قراءتها. بعد هذا الحديث بثلاثة أيام، جاء شيخ عزالدين الخزنوي إلى جامع قامشلو الكبير، والذي يقع في مركز المدينة على الطريق المؤدي إلى مدينة نصيبين (الواقعة في كردستان تركيا). كانت حشود الناس كبيرة في استقبال الشيخ، حتى أن بعض أكرادنا جاؤوا من نصيبين للقاء الشيخ والاستماع إلى خطبته.

بوزو الصغير، والذي لم يتجاوز عمره الرابعة عشرة ربيعاً، كان يخفي قصاصة الورق في جيبه، في انتظار إشارة من أخيه الكبير ليقرأها أمام الشيخ. ألقى الشيخ خطبته أمام مريديه الذين كان يتجاوز عددهم بالآلاف، طالت خطبته كثيراً، أخذت قرابة الساعتين من الزمن، نعس بعض الناس، وبعضهم سرح في النوم، بوزو أيضا لم يتحمل سماع هكذا خطبة طويلة، نام هو الآخر. بعد مدة من الوقت تفاجأ بأخيه وهويهزه ليوقظه من النوم ويقول له: استيقظ أيها الشاب! رد بوزو عليه: هل جاء دوري؟ رد عليه أخوه: أي دور و أية حال! لقد كنتَ نائماً بين هذا الحشد، إلى أن تمكنت من رؤيتك، ذهب الشيخ، لم نتمكن هذه المرة أن نقدم شيئاً جميلاً لشيخنا. نظر بوزو إلى أخيه بشي من الخجل، لكنه رأى وجه أخيه كئيباً والحزن واضحاً عليه. وكأن به يعاتب بوزو بشكل غير مباشر. ردد الأخ الكبير كلمته المشهورة: على المرء أن يعير دينه الاهتمام اللازم...!

بدأ بوزو يكبر ويكتشف بشكل يومي أشياء جديدة في حياته، ينظر إلى شباب جيله، إلى رفاقه في الحي وإلى زملائه في المدرسة، يرى أنهم ليسوا متشددين كثيراً في دينهم، كما أخوته. كان يسمع من بعض الأصدقاء أن هناك ما يسمى بـ «الفكر التقدمي»، كان يصادف عناوين بعض الكتب ذات النفحة الثورية: كتب غيفارا، كاسترو، الماركسية اللينينية، كتب عن البرجوازيه، الشعوب المضطهدة، أشعار بابلو نيرودا ومحمود درويش، يسمع أغاني مارسيل خليفه وشفان برور...

كان بوزو من عشاق القراءة، إلى أن لقبه بعض الأصدقاء بـ «دودة القراءة». بدأ يجمع الكتب رويداً رويداً، يدخر من «خرجيته» بين حين وآخر ليشتري بها كتاب جديد، إلى أن وصل عدد كتبه مايقارب الأربعين كتاباً. كانت هذه الكتب مصفوفة على طاولته الدراسية في غرفته الخاصة، تتوزع مضامينها بين الفكر والسياسة والثقافة.

في أحد الأيام فاجأه أحد أخوته في الغرفة، وبدأ يتمعن في الكتب، فلم تعجبه العناوين، فضرب بيديه على الكتب ورماها جميعاً على الأرض وقال ل بوزو: ماهذه الكتب السخيفة والثقافة «المضللة» ؟. ترك بوزو في دهشته وذهب. أدرك بوزو قصد أخيه، كون الكتب لا تلائم وأفكاره الدينية، ظناً من أخيه «الفهمان» أن الكتب السياسية هي ضد الدين، وتتعارض مع مفاهيم الدين الحنيف.

عاش بوزو بين هاتين الثقافتين، ثقافة الدين والثقافة الحدثية، كانا له عالمين مختلفين، صحيح أن تأثير البيت كان طاغياً عليه، حيث كان يتعايش معه بشكل يومي، فقد كان يجبر على الاستيقاظ كل فجر ليذهب مع أخوانه إلى الجامع لأداء صلاة الصبح، وبشكل خاص أيام شهر رمضان، وكان عليه أن يصوم كل أيام الرمضان مهما

كانت الظروف، بغض النظر عن جسمه النحيل، كانوا يرسلونه إلى «الخوجة» ليتعلم قراءة القرآن. بالرغم من هذا كله كان تأثير البيئة الخارجية، أصدقاء الحارة وزملاء المدرسة أكبر على فكره وثقافته.

تأثير كلتا الثقافتين كان واضحاً على شخصية بوزو. فهو لم يتجرأ يوماً أن يواجه أهله بحقائق الحياة، وأن يقول لهم بأن الحياة ليست فقط عبارة عن صلاة وصوم وعبادة، بل هناك أشياء أخرى تستحق أن يلتفت إليه الانسان، ألا وهي قيمة الانسان ومواكبة العصر.

مرت سنوات، أصبح بوزو طالباً جامعياً في جامعة دمشق. من وقتها عاش حراً، بعيدا عن قيود أخوانه وطقوسهم، خرج من تحت أجنحتهم كطائر حر، يفرد بجناحيه ويزقزق بصوت عال ويقول: ها أنا هنا، حر طليق، سيكون لي طقوسي وحياتي الخاصة بعيداً عن طقوس أهلي وعاداتهم وتقاليدهم.

في دمشق حاول بوزو أن يكوّن لنفسه ثقافة أخرى، جديدة، متن علاقاته مع السياسيين والمثقفين، أصبح يقرأ الكتب بالإضافة إلى كتبه الجامعية، كان يقرأ كل أصناف الأدب والثقافة ما عدا الكتب الدينية،.. كان يقول لنفسه لقد ولى أيام كتب الصحاح وتفاسير الحديث والقرآن.

بعد عدة سنوات في الجامعة، رأى بوزو انه قريب من الثقافة الجديدة أكثر من الثقافة الدينية التي تربى عليها في دار والده، في المحصلة أصبح بوزو شخصاً علمانياً، يؤمن فقط بالحقائق الملموسة بين يديه، ويضحك من يوم الآخرة ويوم الحساب.

بعد غياب طويل عاد إلى مدينته قامشلو، بين أهله. لم تمر عدة أيام، لاحظ أقاربه أن هناك تغيّراً ملحوظاً قد طرأ على بوزو

وتصرفاته، يسمعون منه أشياء غريبة لم يسمعوها من قبل، وفي بعض الأحيان يتقرب من المحظورات والمحرمات في الدين. كما لاحظوا أنه لم يعد يصلي أيضاً. والد بوزو لم ينتبه إلى تلك التغيرات، فقد كان مبهوراً بولده المتميز بين أخوانه الكثر، فبقية أولاده جميعاً ومن كلتا الزوجتين لم يكمل أحد منهم المرحلة الثانوية، بوزو كان الجامعي الوحيد بين أبنائه.

أخوة بوزو (غير الأشقاء) كانوا يسخرون منه ويقولون: لقد ذهب عدداً من السنوات إلى دمشق وقرأ كتابين هناك، عاد ليستعلي علينا ويتفلسف، لقد أصبح حديثه نشازاً بعد أن ترك دينه.

لم يهتم بوزو بكلامهم، كان يعيش كما يحب وكما هي الحياة. حاول أخوانه أن يعكروا صفو حياته ويتدخلوا في كل شاردة وواردة في تفاصيل حياته اليومية. حتى بعد أن تزوج بوزو، كانت لهم فصولاً مزعجة معه، لكن بوزو كان لهم دائماً بالمرصاد، يضع لهم حداً، ويقول لهم :لا شأن لكم بي.

حدثت عدة قصص بين بوزو وأخوانه المتزمتين، لكن، بوزو كان يعالج كل المشاكل بروح من الدعابة والواقعية. ففي إحدى المرات أبدى الأخ الكبير انزعاجه وعدم رضاه لوالدته وقال لها: لا يجوز لزوجة بوزو أن تخرج بدون غطاء الرأس، عليها أن تتحجب، وأصلاً لا يجوز أن تعمل خارج البيت، حتى لو كانت موظفة في دائرة حكومية.

عندما عاد بوزو من وظيفته إلى البيت، نقلت زوجة أبيه طلبات ابنها البكر له؛ وقالت: لقد أبدى أخوك الكبير عدم رضاه على ملابس زوجتك وأنه يريدها أن تترك عملها، حفاظاً على العائلة وسمعتها.

ضحك بوزو من كلام زوجة ابيه. استغربت المرأة وقالت له: ماالذي يضحكك؟ رد بوزو عليها، وقال: انظري يا «أمي»، كما تعرفين أننا (أنا وزوجتي) مازلنا عريسين جديدين، لقد أنفقنا مالاً كثيراً على العرس وشهر العسل، والآن كما ترين يلزمنا الكثير لنؤسس بيتنا ومستقبلنا، إذا لم تشتغل زوجتي ونكتفي براتبي، ستكون حياتنا صعبة، وسنواجه مشاكل في تسديد الديون، وبالتالي سنكون عالة عليكم. اذهبي وقولي لابنك، إذا كان هو مستعد لدفع راتب شهري لي، مقابل الراتب التي تتقاضاه زوجتي من وظيفتها، سوف أعمل بكلامه، وإلا لا شأن له بنا.

نقلت الأم كلام بوزو لابنها الكبير. صفن الإبن قليلا، رأى في كلام بوزو ورطة، وأن ليس بمقدوره أن يدفع راتباً شهرياً لزوجة أخيه. رد على أمه وقال: لا شأن لي ببوزو وزوجته، ليعيشا كما يريدان، كنت أعتقد بأنني أقدم لهما نصيحة من أجل دينهم، لكنه يبدو أنه لم يعد يسمع حتى النصيحة.

حاول الأخ الثاني أن يتدخل في حياة بوزو ويعمل من نفسه واعظاً عليه، بعد أن سمع من زوجته بأن بوزو قد خصص قسماً من مكتبته على شكل (بار) للمشروبات الكحولية. فهجم بشكل متهور على غرفة بوزو في غيابه، حاول جاهداً ان يفتح الباب، فلم يفلح، فأراد أن يكسر الباب، ومن ثم يهاجم الزجاجات التي تحتوي المشروبات الكحولية. هنا تدخلت والدته وقالت له: على مهلك، بعملتك هذه ستخلق مشكلة كبيرة مع أخيك بوزو، مساءً سأتكلم معه وسأحل الأمر.

عاد بوزو من العمل بعد الظهر، اقتربت زوجة أبيه منه، وسردت له قصة الأخ الثاني وهجومه على باب غرفته، لانه يشك أن هناك بعض زجاجات «العرق» في غرفتك.

ضحك بوزو مرة ثانية وقال لزوجة أبيه: ما قصة أولادك معي، ليذهبوا إلى أولادهم وتربيتهم، إذا كنت أملك زجاجة عرق في غرفتي، على الأقل لا أؤذي أحداً بها، بينما أولادهم يسكرون ويعربدون في الشوارع، لقد أصبحوا «فرجة» للناس. ثم استطرد في كلامه بلغة مليئة بالتهديد وقال لها: قولي لابنك هذا إذا حاول أن يقترب مرة ثانية من غرفتي سوف أكسر قدميه، فهو ليس بأبي ليتحكم بي، وهو غير مسؤول عني، وليس حريصاً على صحتي أكثر مني، فالكتب التي قرأتها هي بعدد شعرات رأسه، أعرف ما هو جيد في هذه الحياة وما هو السيء.

ذهبت الأم عند ابنها الثاني وسردت له كل ماقاله بوزو، وكيف أنه هدد بكسر رجله إذا ما اقترب ثانية من باب غرفته. لم يرد الابن، بل أكتفى بالصمت، كونه يعرف عيوب أولاده ومصائبهم.

سمع الأخ الثالث بقصص بوزو وتهديداته لأخوانه، فحاول هو الآخر أن يزعج بوزو من خلال استفزازه بالأمور الدينية. لكن بوزو الصغير الذي كانوا يصطحبونه عنوة إلى الجامع يومياً، لم يعد صغيراً، كبر وأصبح له جناحان كبيران، وهو قادر على الطيران لوحده وبقوة. الأخ الثالث كان مصراً على إزعاج بوزو، كان يقول، سوف أجبره على الذهاب إلى الجامع، بالرغم من أنه أصبح رجلاً وتزوج، وتخرج من الجامعة، لكن من واجبي أن أرشده إلى دينه؟

ذهب إلى بوزو في مكان عمله الإضافي، وكان التوقيت يوم الجمعة، وطلب منه أن يترك عمله ويذهب معه إلى خطبة الجمعة. رد عليه بوزو، وقال: حسناً، اذهب أنت وسوف ألحق بك بعد قليل. ذهب أخوه إلى الجامع، سمع الخطبة وصلى صلاة الجمعة، لكن بوزو لم يلحق به. عاد ثانية إلى مكان عمل بوزو وقال له بلهجة قاسية: ها أرى أنك لم تأتِ إلى الجامع؟، هل دراستك علمتك أن تكذب على أهلك؟. رد عليه بوزو بنفس النبرة القاسية وقال: أخي الكريم، إنني أعرف طريق الجامع جيداً، عندما أريد أن أذهب إليه، سأذهب، لا داع أن تدلني على الطريق، أصبح عمري يقارب الثلاثين عاماً، درست بمافيه الكفاية، أملك قدر من الثقافة، بمعنى لا أحتاج إلى نصائحك، فرجاءً، امض في طريقك وارشد أولادك فهم بحاجة إلى تعاليمك أكثر مني، أما أنني تعلمت الكذب من الجامعة، فلن أرد عليك، اعتقدت أنك ستفهم أن لا سلطة لك علي لتجبرني على القيام بأشياء تحبها أنت، لكنك لم تفهم حتى هذه الإشارة. صفن الأخ قليلا ورأى أن كلمة أخرى منه سيؤدي إلى شجار بينه وبين بوزو، وأن الذي يقوله صحيح، لا سلطة له عليه، سلك طريقه ومشى.

بعد هذه المواقف، تخلص بوزو من كابوس أخوانه الثلاث، والذين يدَّعون التدين بشكل خاطيء. لكنهم كانوا مصرين أن يقولوا أن بوزو قد ترك دينه و أصبح ملحداً.

صاحبة القلب العجوز

سألت مونيكا، الموظفة النرويجية في مكتب العمل، الأجنبية شيلان وقالت لها: أنت صبية، لماذا كل هذا الحزن على وجهك، لماذا كل هذا الشحوب والترهل طاغيان على ملامحك، لماذا؟.

ردت شيلان عليها بعد أن تنهدت بعمق وقالت: صحيح أنا صغيرة في السن، لكنك لا تستطيعين رؤية ما بداخلي، هنا في صدري يرقد قلب عجوز!

استغربت مونيكا من جوابها، نظرت في عينيها المليئتين بدموع حبيسة، وقالت:

هل لي أن أعرف لماذا قلبك عجوز؟.

تنفست شيلان بعمق، اصفرّ وجهها، طغى الحزن على جميع كيانها، انسل بعض خصلات من شعرها الأبيض على أطراف وشاحها، مع أن عمرها لم يتجاوز بعد الثلاثين ربيعاً، لكنها كانت تبدو كامرأة في السبعينات من عمرها.

قالت شيلان لمونيكا: ماذا أقول لك، إنها قصة طويلة، تمتد منذ طفولتي وإلى اللحظة.

اليوم عندما أتفرج على القنوات الكردية من بلدي كردستان، وأرى الفتيات يذهبن إلى المدرسة، أتذكر طفولتي وأحزن لمنعي من الذهاب إلى التعليم، ألوم والديَّ على فعلتهما هذه، لقد منعاني من التعليم، لأن الله خلقني أنثى، لأكثر من ذلك تلك العادات السيئة في مجتمعاتنا، عندما يزوجون الفتيات القاصرات لرجال كبار في السن، كل هذه «الجرائم» تنظم ضمن العائلة، بنت الخال تكون لابن الخالة، وبنت العم يحيرها ابن العم، أي ممنوع عليها أن تتزوج أي

شخص إلا أبناء الأقارب، في حال إبن العم أو إبن الخالة لم يرض بها وقتها يمكن أن تتزوج من شخص آخر. الخطيفة بين الشباب والشابات كثيرة، لعدم قبول الأهل بالزواج من بعضهما البعض، ومنعهم من حرياتهم الشخصية، أنا واحدة من ضحايا هذه العادات والتقاليد البالية، أبي وأمي وضعا خطة مستقبلية لحياتي دون أن يسألوني ماهي رغبتي.!!.

كان عمري ستة عشر عاماً، وقتها كنت أبكي على لعبة أو قطعة حلوى إن لم أحصل عليها، أهلي اختاروا لي رجلاً لأكون زوجة له. هذا الرجل كان يكبرني بثمانية عشر عاماً، أبي أهداني أياه، كون الرجل كان قادماً من أوربا ويقيم فيها، كان يملك بعض المال، أعتقد أن المال أعمى والديُ أمام رغبة ذاك الرجل في طلب يدي.!

في عام 2000 وبعد، بدأ الشباب المهاجر إلى أوربا يزورون كردستان، ويختارون الأجمل من الفتيات للزواج بهن، وأخذهن إلى الدول الأوربية التي يسكنونها. كانوا يختارون الفتيات كأنما يختارون قميصاً أو هاتفاً نقالاً. أهل العروس لا يعرفون من هو هذا الشخص، ومن هو أبوه، وما فصله ونسبه، كانوا يوافقون عليه، ظناً منهم أنهم يؤمنون مستقبلا لبناتهم من خلال هذه العملية.

تتابع شيلان قصتها لـ مونيكا وتقول: عندما أراد الملا أن يعقد قراني على الرجل، قال لوالدي:

إن ابنتك قاصر ولا يجوز تزويجها الآن، لكن الملا تراجع عن أقواله سريعاً عندما دس «خيال الزرقة»، أو «فارس الأحلام»، بعضاً من المال في جيبه، فنسي الملا حتى إيمانه، عقد القران، وكتب في «ورقة صغيرة» أنني أصبحت «زوجة» أو ربما «سلعة» لهذا الرجل.

أصبحت «امرأة» وعمري لم يتجاوز بعد الستة عشر ربيعاً، لا علم ولا دراسة، لا معرفة، لا تربية كافية، لم أكن على دراية جيدة بأمور الحياة، فقط كنت أعرف القليل عن القرية التي أسكنها، طبيعتها، أشجارها، أدغالها، حيواناتها، القرويين وبعض الصديقات اللواتي كان أهلهن جيراناً لأهلي.

على غفلة من الزمن خطفني هذا الرجل بعد أن أمسك بجناحي الغضين، وطار بي إلى خارج الحدود. وصلنا إلى تركيا، وبدأ بمتابعة بعض الأوراق المطلوبة للسفارة ليحصل على موافقة لم شمل العائلة، كوني أصبحت زوجته، ولكوني صغيرة، رفضت أوراقه من السفارة لأن القوانين الأوربية ترفض الزيجات المبكرة، فاضطر «خيال الزرقة» أن يهربني سراً إلى أوربا، وهذه العملية بحد ذاتها «رواية»، عشت الويلات وأنا اتنقل من بلد إلى بلد ،وأتنقل من بين يد مهرب إلى الآخر، إلى أن وصلت إلى «الجنة الموعودة». أتذكر عندما كان يقول والدي لي: بأن زواجك من هذا الرجل سيمنحك حياة هنيئة، ستعيشين في دولة راقية، وسيكون لك مستقبل واعد، منذ تلك اللحظة وحتى الآن يتملكني خوف شديد، ووجع مستمر في داخلي من هذا المستقبل.

بعد زواجي وعمري لم يصل إلى السبعة عشر عاماً، أصبحت حامل، وأصبح رحمي الصغير يحمل توأماً من عصافير الجنة، بعد ستة أشهر من الحمل، لم يكن جسمي الصغير قادراً على حمل الجنينين في أحشائي، فاضطررت إلى العملية القيصرية لكي أحافظ على حياتهما، لكن أحدهما توفي بعد أقل من شهر في الحاضنة الخاصة، لكن الآخر عاش على الأوكسجين إلى ما أن اكتمل نموه.

استرسلت شيلان في قصتها المأسوية لتقول: مونيكا هل بإمكانك أن تتصوري أو تتخيلي فتاة قروية لا خلفية ثقافية وراءها وتمر بكل هذه المآسي، وتصبح بعيدة عن بيئتها، وتفقد أحد توأميها، وهي لم تتعد بعد السابعة عشر من عمرها، تصوري حالي وأنا أحمل ابني الميت بين يدي. تصورت وقتها كأن جزءاً من جسدي قد مات، حينها لم تكن لي القدرة على أن أعبر ولو بجملة بسيطة عن مأساتي، وما يدور في مخيلتي حيال هذا الهول الكبير الذي أمر به..

هذا الحزن لازال يعشعش في داخلي، وقتها كنت أرغب في أن اصرخ وبقوة، لكي أفرغ ما بداخلي من مشاعر جياشة تحيط بي وتحيط بولدي الذي مات بين يدي. كانت لدي رغبة جامحة أن أبكي قدري، أبكي حياتي، أهلي، بلدي، الغربة،.. إلخ، لكن هذه المواجع بقيت كاتمة في داخلي.

مونيكا! يكفي أن تفتقي جروحي وتكثري من همومي ومواجعي التي لا تنتهي.

ردت عليها مونيكا وقالت: أعرف وأقدر وضع الغربة فيك! لكن لدي سؤال أخير لك، وهو أنني سمعت بأن النساء عندكم يتعرضن أيضاً لعملية الختان وتشويه الأعضاء التناسيلة الأنثوية، هل هذا صحيح؟!

شيلان بالرغم من معرفتها المحدودة، ردت على مونيكا بشيء من التحدي وقالت: هكذا نوع من الأسئلة تزعجني، لا أريد ان أجيبك.

هزت مونيكا رأسها و أبدت تقبلها لرد شيلان، وقالت: الآن عرفت لماذا أنت صاحبة قلب عجوز.!

صقر الجبال والوديان

قبل أن ينهي «زانو» دراسته الجامعية طُلب منه أن يكتب رسالة التخرج في البكالوريوس، فقام بإعدادها، وأحب ان يهدي هذا العمل لوالده، كونه كان يقدر حجم التضحيات الذي قدمها والده لأجله، ولأجل أسرته كلها!..

كان يتذكر والده وتاريخه المليء بالمشقات، وكيف أنه كان يتجول بين الجبال والوديان، بين القرى والمدن، لكي يعمل ويؤمن لقمة العيش لعائلته. لقد عمل هذا الوالد طويلاً في جميع أنواع المهن، فلم يهدأ له البال حتى الممات.

كتب زانو على الصفحة الأولى من رسالته الجامعية، إهداء إلى «صقر الجبال والوديان» (أبي). هذه العبارة كانت تراوده منذ الصغر، عندما قرأها للمرة الأولى في لقاء صحفي جرى بين الكاتب المصري محمد حسنين هيكل والقائد الخالد ملا مصطفى البارزاني في عام 1975 ونشرت في الصحف العربية بعنوان «مقابلة مع صقر الجبال».

كان زانو يرى شخصية القائد البارزاني في شخص والده، إذ يتخيل والده كأنه صورة طبق الأصل عن هذا القائد. هذا الأب الفقير والدرويش، المنحدر من مرتفعات طوروس في كردستان الشمالية (سه ر ختي) باتجاه سهول الجزيرة في كردستان الغربية (بن ختي)، لم يكن يتقن أية لغة سوى الكردية، اللهجة الكورمانجية، ولم يكن يحمل أي فكر معين في رأسه سوى فكرة (المحمودكية والعتمانكية) الانتقامية. لكنه وبإرادة عالية استطاع خلال فترة قصيرة أن يندمج مع عصرنة المدينة، ويتخلى رويداً رويداً من أفكاره البالية.

نزل أول مرة إلى مدينة عامودا، وبدأ يعمل في مجال الأعمال الحرة، كأحد صغار الكسبة، ثم تطور بعدها بشكل ملحوظ، وانتقل إلى المدن الكبيرة، فسافر إلى بغداد للعمل، ومن ثم عاد إلى الموصل. كان الأب يسرد لزانو و أخوته عن مغامراته عندما كان حارساً ليلياً في مدينة الموصل. بعدها انتقل إلى بيروت، ومكث فيها فترة زمنية لابأس بها، إلى أن جمع لنفسه بعضاً من المال يمكنه من فتح محل تجاري في مدينة قامشلو. ليصبح تاجراً معروفاً هناك، بل ليصبح مشهوراً لدى جميع الأرامل في المدينة، كونه كان يتمتع بالحسن والجمال وطيبة القلب والمعاملة الرقيقة. كان بائعاً للقماش، وكانت النساء الجميلات تترددن عليه ويشترين منه حصراً، وكن يغازلنه ويطلقن عليه تحبباً اسم «بائع السراويل النسائية».

عمل صقر الجبال والوديان لسنوات طويلة في هذه المهنة، وحاول أن يعلم أولاده مهنة التجارة، كان مليئاً بالعنفوان، لم يهدأ له البال، كان يكد ليلاً ونهاراً من أجل مستقبل أولاده، ليدفعهم نحو الأفضل ويؤمن لهم مستقبلاً عظيماً، فكان يعول على ابنه زانو وكان زانو بدوره يحاول أن يرد الجميل إلى أبيه الكادح والمضحي.

أولاد صقر الجبال والوديان لم يكونوا على قدر كبير من المسؤولية، فبعضهم خيبوا آمال والدهم، وبعضهم الآخر كانوا مجتهدين، وزانو كان أحدهم.

كان الأب يردد دائماً مقولة شعبية لأولاده، هي: المرء لا يريد لأحد أن يكون أفضل منه سوى أولاده، ويدعم كلامه بحكمة كردية «إذا كان الولد مثل أبيه، فلا بأس به. وإذا كان الولد أكثر من أبيه

شأناً، فعليه الورد. أما إذا كان الولد أقل شأناً، فعليه الروث». ويقول في داخله: لا أمل في هؤلاء الأولاد، أعتقد ان الروث سيكون من نصيبهم.

كان لصقر الجبال والوديان أولاد كثر، من زوجتين، من كل زوجة عدة أولاد وبنات، أولاد الزوجة الجديدة وكونها كانت من المدينة، كانوا أكثر ذكاءً من أولاد «الزوجة القديمة». كان الأب فخوراً بأولاد زوجته الجديدة، وكان زانو أحدهم، مع أن هذه الزوجة لم تعمر طويلاً عند الأب، رحلت وهي لازالت في عز شبابها.

في إحدى المرات زار أحد الأصدقاء صقر الجبال والوديان وسأله: كيف أولادك؟، هل انت راض عنهم؟ رد الصقر على صديقه سيامندو قائلاً: كل قسم منهم يشبه أخواله في طبائعه وسلوكه وشطارته.

كانت تربية الأطفال وسلوكهم مهميناً على الأب، وكان مهتماً بهم في عملية التربية والتعليم، لكن، مع الأسف، لم يكن يبدي كل أبنائه الاهتمام نفسه حيال نصائح الأب وإرشاداته. كان أسلوب الأب يشبه أسلوب الكتاب في حديثه اليومي مع عائلته والناس، وكان يدعم كلامه دائماً ببعض الأقوال المأثورة أو بعض الحوادث الواقعية.

في إحدى المرات وبينما كان يقص إحدى قصصه النضالية في المجال القومي لأولاده، إذ كان يقول: في سنة 1936 نزحت أنا وعائلتي من القرية باتجاه مدينة عامودا نتيجة فرمانات الدولة التركية، في ذاك الوقت كانت الأفكار القومية في أول عهدها، اجتمعت مع مجموعة من الأصدقاء، وشكلنا حلقة تعني بالشأن

القومي، وقتها أطلق أصدقائي لقب «ميرزا حسين» علي، كنت وقتها شاباً يافعاً في أوج عطائي، نشيطاً، ممتلئاً بالطاقة. كان بإمكاني ان أنجز كل ما هو مستحيل.

بعد فترة طلب الأصدقاء مني ان أقوم بمهمة إلى مدينة ماردين، فلبيت الطلب دون تردد، جهزت حصاني وبدلتي وحملت سلاحي، وانطلقت باتجاه ماردين. (لن أطيل عليكم يا أولادي). قبل وصولي إلى المدينة استوقفتني دورية من الدرك التركي، قبضوا علي، أخذوا سلاحي وحصاني وربطوا يدي، وساقوني إلى سجن ماردين. مكثت في السجن ثلاثة أشهر وثلاثة أيام، دون أن يسأل أحد عني. ساءت حالتي، تعبت نفسياً. بعدها تم الإفراج عني، اتجهت إلى عامودا. عندما وصلت إلى البيت، ماذا أرى، رأيت والدتكم (زوجته الأولى) في أسوأ حالاتها، لم يبق عندها لقمة من الزاد لكي تطعم بها أولادها، كان البعض منكم مريضاً، لم يسأل أي صديق عنها وعنكم، لم يزرها أحد. حزنت كثيراً على ما حل بي وبعائلتي. كدت أكفر بالأصدقاء وبالمجموعة، لكن حبي لوطني كان يمنعني أن أظهر حقدي عليهم.

سمع الأصدقاء بعودتي، جاؤوا لزيارتي، قالوا مباشرة: أنك أصبحت غائباً لفترة أربعة أشهر، ولم تسدد اشتراكاتك الشهرية، الآن يترتب عليك دفع 40 قرشاً عن المدة الماضية. استنشقت الهواء بعمق، ونظرت إلى الأصدقاء وقلت: هل أنهيتم كلامكم؟ سأقول لكم بعض الكلمات، أعتقد أنها تناسبكم، أتأسف عليكم جميعاً، لقد صدمت من صداقتكم، ياقليلي الوجدان، كل همكم النقود. أين أسئلتكم عن الوطن؟، لماذا لم تسألوني عن سبب غيابي، هل تعرفون

أين قضيت الثلاثة الأشهر الماضية؟، أين كنت؟، لماذا لم تهتموا بعائلتي وأولادها، هل هذه هي إنسانيتكم وحبكم للوطن والشعب؟.

قبل أن ينهي ميرزا حسين عتابه، نظر الأصدقاء لبعضهم البعض وقالوا: هيا لنذهب، يبدو أن ميرزا حسين قد تأثر كثيرا بالشيوخ والملالي في رحلته، لندعه وشأنه، وذهبوا.

أكمل ميرزا حسين قصته لأولاده وقال لهم: أولادي، حب الوطن من الإيمان والنضال من أجله من أعظم المقدسات، لكن وجود هكذا نماذج من الاصدقاء يجعل المرء يكره كل ما هو قومي ووطني. لكن مع هذا، أطلب منكم جميعاً أن تحبوا وطنكم وتناضلوا من أجله، ولاتنسوا أن تتنبهوا من رفاق السوء.

كلام ميرزا حسين ذهب أدراج الرياح، فأولاده لم يعيروا كلام والدهم بشيء، وكان الهم القومي عندهم آخر اهتماماتهم. كان همهم الأول والأخير هو جمع النقود، فهم لم يعيروا السياسة والعلم والحالة الاجتماعية أي اهتمام. حتى حالة التدين عندهم كانت بمزاجية خاصة، فعندما تدر عليهم بالنقود، كانوا شطاراً فيها، وعندما لم تكن تدر عليهم بالمال، فقد كانوا يقومون بتطبيق أدنى درجات العبادة. كانت جميع الأشياء تقاس عندهم حسب مبدأ الربح والخسارة، حتى أحفاد ميرزا حسين لم يهتموا بمبادئه، فكانوا نسخة طبق الأصل عن آبائهم. يحكى أنه في إحدى المرات مرت لجنة لجمع التبرعات من أجل حلبجة عند أحد أحفاد ميرزا حسين، فقال الحفيد للجنة: لماذا هذه التبرعات، قالوا له: إنها لضحايا مدينة حلبجة. فرد عليهم، وماهي حلبجة!؟.

ميرزا حسين لم يكن على توافق مع أولاده الكبار، فكثيراً من المرات قادهم للمقاضاة لدى بعض رجال الدين المعروفين ليبين لهم حجمهم القزم وجشعهم للتسلط على أملاكه.

لم يندم صقر الجبال والوديان على أيامه الماضية، لكن غدر الأيام جعلت الحياة تسير معه بشكل معكوس، فقد كان يتمنى أن يرى أولاده كما الأسود لا كما الثعالب والذئاب. كان يردد دائماً لأولاده وبشكل مازح، أنني نادم على جلبكم للحياة، نادم على تلك الليالي التي قضيتها مع والدتكم لتولدون، حبذا لو كنت في الطاحونة بتلك الليالي. وكان ينظر إلى قضيبه ويشتمه، على أنه صانع لهؤلاء الأولاد العاقين.

قبل وفاة صقر الجبال والوديان، مرض لفترة طويلة، وقتها لم يقم أي من أولاده بواجبه الكامل اتجاه أبيه، لرعايته والاهتمام بمرضه، وعندما كان يزوره أحدهم و يتأبط بعض الفاكهة تحت أبطه، كانت له غاية فيها، ليقنع المحيطين بأبيه على أنه مهتم ويحب والده، لكن غايته كانت الوراثة التي سيحصل عليها بعد مماته.

ظل الصقر طريح الفراش لمدة ثلاثة سنوات، لم يتلمس خلال هذه الفترة أي رعاية كافية أو حنان صادق من أولاده، بالرغم من أنه ضحى بالغالي والنفيس من أجلهم. بعد رحيل الصقر بيوم واحد فقط، خلقت حالة من عدم التوافق بين الأولاد، في اليوم التالي طلبوا من والدتهم ان يوزعوا الورثة فيما بينهم. صرخت الأم بهم وقالت: أنكم لا تستحون، فمازال كفن والدكم رطباً، ندياً، أصبروا قليلاً يا أولاد،... لم يعيروا الأولاد كلام أمهم أي اهتمام، و أصبح في كل يوم يتردد واحد منهم إلى أمه ليقص عليها مناماً من خياله،

على أنه رأى والده في المنام وهو يقول له: عليكم بتوزيع الورثة فيما بينكم، فلم يرتح لي البال في القبر طالما لم توزع الوراثة. تبكي الأم طويلا بعد سماعها هذه القصص من أولادها ونقول لهم دائماً: لم يجف بعد كفن والدكم، اصبروا.!

هذه القصة باتت تتكرر كثيراً، وتزعج والدتهم، ذات يوم طلبت الوالدة منهم أن يجتمعوا عندها في البيت. اجتمع الكل وكان زانو (ابن الضرة) أيضاً بين أولادها. تكلمت الأم وقالت لهم: لقد رأيت والدكم في منامي. فرح الجميع من هذا الخبر، وتوقعوا أن يكون منام والدتهم كما مناماتهم المختلقة. تابعت الأم وقالت: هل تريدون أن أقص عليكم منامي الذي رأيت والدكم خلاله؟ رد الجميع بصوت واحد: نعم نريد سماع منامك.

قالت الأم: رأيت أن والدكم في المنام يقوم بخلع سرواله وينظر إلى قضيبه ويبصق عليه و شتمه، ويقول: اللعنة عليك وعلى نسلك. صدم الأولاد من كلام أمهم، أصبحت رؤوسهم تطأطىء نحو صدورهم، وأصبح الجو تراجيدياً. أحب زانو أن ينشر الدعابة بعد أن هيمن الحزن على الاجتماع، فوقف وقال: رحمة الله عليك ياأبي، حتى وأنت تحت التراب لم تترك روحك المرحة وكلماتك الممتعة.

فلافل ورقائق الـقافل

في السبعينات من القرن الماضي كانت المدارس الثانوية في قامشلو بعيدة عن الحارات الكردية، كان الطلاب يضطرون الذهاب مشياً على الأقدام من حاراتهم (قدور بيك والهلالية والعنترية) إلى حارة (الوسطى) حيث ثانوية العروبة وثانوية عربستان. المسافة لم تكن قصيرة، بل كان الطلاب يتحملون عبء المشي لمسافة ثلاثة إلى أربعة كيلومترات يومياً للوصول إلى المدرسة، هذا عدا الظروف القاسية في أيام الشتاء القارس والطين اللاصق في أرصفة الشوارع؛ الطين الذي لم ينجُ منه أحد منه، وللطين الواصل إلى أرصفة الشوارع قصص عديدة، فهو لاصق في حذائك وبنطالك لا محال؛ كان الطين من علامات المدينة المهملة من قبل رؤساء بلديتها، أما في فترة الخريف والصيف، كان الجميع وبشكل خاص الطلاب يشتكون من العجاج القادم من مدينة دير الزور وبادية الحسكة، وهم ذاهبون وعائدون من وإلى المدرسة.

زرادشت الملقب بـ «زرو»، كان أحد الطلاب الذين يمشون يومياً مع زميله شاهين الملقب بـ (شاهينو) من حي قدوربيك إلى حي الوسطى لمدرسة العروبة.

كان كلا الطالبين في صف واحد، وكانا جيرانين في نفس الشارع، كانا صديقين حميمين متلازمين في السراء والضراء، ملتزمين بمدرستهما، كانا لهما طقوساً خاصة مشتركة، ففي كل يوم بعد إنتهاء دوام المدرسة وكون الطريق بين المدرسة والبيت كان طويلا جداً، كان عليهما إيجاد أشياء تسليهم في الطريق، أحد هذه الأشياء «أكلة الفلافل». بعد الدوام كانا يذهبان إلى الكشك المجاور للمدرسة، يشتريان سندويشتين من الفلافل، يتسليان بهما إلى أن يصلا إلى

البيت. أكلة الفلافل اليومية كانت من طقوسهما المميزة، كانا على الدوام يساعدان بعضهما البعض لشراء الفلافل، وإذا صدف أن أحدهما لا يملك نقوداً، فيستدين من صديقه ليشتري سندويشة المفضلة.

في أحدى المرات سأل شاهينو صديقه زرو عن بعض الليرات لشراء سندويشة الفلافل، فحلف زرو إنه لا يملك الكفاية، بل يملك فقط ثمن واحدة، ووعد زرو أن يشتري سندويشة الفلافل ويقسمها مناصفة بينه وبين شاهينو، لكي يتمكن الاثنان من أكلها. بعد ان اشترى زرو السندويشة، قسمها إلى قسمين، أحداه كان أطول بقليل من الثاني. أخذ زرو القسم الطويل، وأعطى القسم القصير لشاهينو، كونه هو الدافع لثمن السندويشة. لاحظ شاهينو تصرف صديقه زرو المشين، و قال له: لا ياصديقي، لماذا هذا التصرف، هل ستكبرك هذه اللقمة الزائدة التي أخذتها من حصتي؟! كان عليك أن تقسمها بالعدل، لقد خيبت أملي فيك، زعل شاهينو. خجل زرو من تصرفه، وبدأ يقدم اعتذارات لصديقه شاهينو، صديقه لم يبالِ. زرو بدأ يمازحه ويقول: بشرفي سوف أشتري لك يوماً ما سندويشة طويلة جداً بطول شارع شكري القوتلي، حتى تشبع. شاهينو لم يبالِ أيضاً، ولم يحاول أن يجامل زرو، كان قد أخذ على خاطره من تصرف صديقه، كان مقهوراً على صداقته مع زرو. شاهينو لم ينطق بكلمة واحدة منذ تلك اللحظة إلى أن وصلا إلى البيت، ودّعا بعضهما البعض على مضض.

في اليوم الثاني، كان يوم الجمعة، عطلة نهاية الأسبوع، في مثل هذا اليوم، أي كل يوم جمعة، كان شاهينو يأتي إلى منزل زرو ويضعان معاً خطة لليوم، لكي يمتعا نفسيهما في العطلة، إما كانا يذهبون لحضور فيلم سينما أو كانا يذهبان إلى الحديقة العامة في

وسط المدينة، حيث الناس تتنزه هناك وتتسلى بالألعاب والمأكولات الموجودة فيها . ولا ينسيان أن يأكلا الفلافل.

شاهينو لم يذهب في هذه الجمعة إلى صديقه. بدأ القلق يراود زرو من تأخيره، كان يقول في لنفسه، هل معقول أنه اازال زعلاناً بسبب اللقمة الزائدة من سندويشة الفلافل؟، لا لا، لا أصدق أنه هكذا، سأذهب إليه للبيت لكي أطمئن عليه. ذهب زرو إلى بيت صديقه، رن الجرس، خرجت أم شاهينو وقالت له: خير يا أبني؟! رد زرو وقال: خير إن شاء الله، لا فقط أتيت لكي أطمئن على شاهينو، فهو لم يزرني في البيت كالعادة، استغربت! صحيح أين هو؟ ردت الأم: أعتقد أنه ذهب مع صديق آخر إلى النهر لكي يصطادا السمك. فهم زرو الموقف، وبدأ يحك رقبته من الخلف، وقال للأم، طيب: سأحاول أن أذهب إليهم،.. سار في طريقه، وبدأت الأفكار تراوده، فكرة تأخذه وأخرى «تجيبه»، أخيراً قرر أن يذهب إلى النهر لرؤية صديقه شاهينو ومشاركته فرحة صيد الأسماك.

قبل أن يصل زرو إلى كتف النهر ببضعة مئات من الامتار، رأى تجمعاً كبيرا من الناس يولولون ويصرخون، وكأن مصيبة قد وقعت. بدأ قلب زرو يخفق بسرعة. قال في نفسه: خير إن شاء الله، عسى أن يكون خيراً وأن لا يكون صديقي شاهينو في مأزق.

ما أن وصل زرو النهر حتى رأى جسد صديقه مرمية على كتف النهر، جثة هامدة، الناس تولول وتقول إنه غرق في النهر، لقد غلبه الماء المتدفق، كان سيلان الماء قوياً هذا اليوم، لم يستطع مقاومة النهر، لم يجد السباحة جيداً، فغرق. وقتها أغمي على زرو ووقع أرضاً، التف الناس حواليه، رشوا الماء على وجهه، استفاق، كان

مصدوماً من الكارثة، أمسكه ألم قوي، وقف أمام الجثة ثانية، لم يتمالك نفسه، فصرخ صرخة مدوية ورمى نفسه على جثة صديقه.

مرت أيام عدة على رحيل شاهينو، كان زرو في حالة يرثى لها، مصدوماً من هول الواقعة، يعاتب نفسه، يؤنبه ضميره، كونه لم يقسم سندويشة الفلافل بشكل عادل، كان يقول في داخله؛ لعنة الله على الفلافل ويوم وجدت فيها الفلافل، لولا تلك اللقمة اللعينة لكان شاهينو اليوم حياً. مرت سنة كاملة على الحادثة دون أن يذوق زرو الفلافل، في كل مرة كان يذهب إلى المدرسة ويرى كشك الفلافل، كان يتذكر صديقه وتتراءى صورته أمام عينيه وهما يأكلان الفلافل.

أنهى زرو المرحلة الثانوية، وحصل على البكالوريا. أراد والده أن يرسله إلى أوربا لمتابعة دراسته هناك، فاختار له بلجيكا. ذهب زرو إلى بروكسل لكي يدرس في جامعاتها، كالعادة، وفي كل جامعات العالم، على المرء أن يتقن لغة ذاك البلد. سجل زرو دورة اللغة الفرنسية، لكي يستكمل بعدها دراسته بهذ اللغة في بلجيكا، علماً أن البلجيكيين يتكلمون لغتين، بالإضافة إلى الفرنسية يتكلمون الفلمنكية القريبة من الهولندية، لكن زرو اختار الفرنسية كونها لغة عالمية، ولديه خلفية من المرحلة الثانوية، كونها كانت لغته الثالثة بعد الكردية والعربية.

بدأ زرو دورة اللغة، كانت الدورة تحتوي على خليط عجيب من الناس الذين يريدون تعلم اللغة الفرنسية، كان زرو يقول في داخله: إن خليط الناس في هذه الدورة تشبه «لباس القرباط» ذات الألوان المتعددة. فهم من قوميات مختلفة ومن قارات عدة. حاول زرو أن يتقرب منهم، لكي يختار لنفسه صديقاً يؤنسه في غربته ويمارس اللغة اليومية معه. بعد فترة التقى بشاب من قوميته، كردي من كردستان

العراق، اسمه «كاوا»، أصبحا صديقين، يذهبان معاً إلى الدورة ذاتها، يتسللان خارج أوقات الدورة، يضعان خطط لنهاية الأسبوع،.. إلخ

بعد فترة، لاحظ زرو أن علاقته مع صديقه الجديد كاوا، تشبه تماماً علاقته مع المرحوم شاهينو، لا بل هي صورة طبق الأصل من تلك العلاقة، لكن مع شخص جديد، وبدلاً من الفلافل كانت رقائق الڤافل. كون ڤافل، أكلة مشهورة في بلجيكا، وتتكون من الطحين والبيض، تسلق في جهاز خاص، تبدو كأقراص. كان زرو يشبهها بزهرة دوار الشمس، بسبب شكلها الدائري ولونها. اعتاد زرو وكاوا أن يأكلا الڤافل يومياً بعد دوام دورة اللغة. كان يذهبان إلى الكشك الذي يصنع هذه الرقائق العجينية، يشتريان اثنتين ويضعان بعض المربى عليها. كانا يتلذذان في أكلها، ويمزحان على طول الطريق إلى أن يصل كل واحد إلى مكانه.

استمر طقس شراء الڤافل بين هذين الصديقين لفترة طويلة، كان زرو دائماً حريصاً على أن لا يحدث أي زعل بينه وبين كاوا بسبب الڤافل، كون تجربته المريرة مع الفلافل وصديقه شاهينو كانت تراجيدية بكل معنى الكلمة، ليس لديه رغبة في أن تُعاد هذه التجربة مرة أخرى. لهذا كان دائماً يسعى أن يدفع هو ثمن الڤافل. في إحدى المرات قال له كاوا: لماذا تصر دائماً أن تدفع أنت؟، صحيح أنك تملك النقود، أنا أيضا أملك النقود، ونحن الآن في أوربا ولسنا في وطننا، لكي تدفع عني وتظهر كرمك «الطائي» لي، لا داعٍ أن يدفع الواحد عن الثاني، اتركنا من عادات بلادنا. عندما سمع زرو كلمتي الوطن والبلد، تنهد بعمق، تغيرت ملامحه، بدأ آثار الحزن على وجهه، بدأت عيناه تدمعان،.. استغرب كاوا منه، وأصر

عليه أن يعرف سر هذه التنهيدة والتغيير في ملامح وجهه. فقام زرو بسرد قصة شاهينو وأكلة الفلافل، و ي نهاية القصة أبدى زرو مخاوفه، من أن لا تعاد القصة بينه وبين كاوا أيضاً، و قال: أتمنى ألا تكون أكلة الڤافل في يوم من الأيام سبباً لزعل أحدنا من الآخر.

ربّت كاوا على كتف زرو وقال له: إننا في أوربا ياصديقي، وكما تعرف أن الحياة هنا منظمة، كل الأمور تسير بدقة، لاتشبه بلداننا، لا تبالِ، لن يحدث لي شيء، لا تخف، نحن هنا بسبع أرواح، لن نموت باكراً. ودعا بعضهما البعض على أمل أن يلتقيان في نهاية الأسبوع.

في نهاية كل يوم عطلة، كانا زرو وكاوا يخططان لزيارة الأماكن السياحية في بروكسل، وأصبحت عندهم كعادة، فهم لن يتركوا مكاناً في العاصمة إلا و زاروها. بعد لقائهما بيومين، قال كاوا لـ زرو: لن أستطيع أن ألتقيك نهاية هذا الأسبوع، كوني سأسافر لأحد أقاربي في هولندا، سأزوره ليومين فقط.

عندما سمع زرو هذا الخبر، بدأت ملامح وجهه تتغير، وضربات قلبه تزداد، تراوده أفكار شيطانية، بأن مكروهاً ما سيصيب صديقه في هذه الرحلة. استجمع زرو قواه وتمالك أعصابه وقال له «سفرة سعيدة، الله يكون معك، أتمنى أن لا تتأخر علي كثيراً».

بعد يومين من سفرة كاوا، سمع زرو خبراً مأساوياً عن صديقه، بأنه قضى نحبه في حادثة سيارة بين بروكسل وأمستردام. صعقه الخبر، أصبح زرو طريح الفراش لمدة طويلة، لم يستوعب ما حدث لصديقه كاوا، لم يغادر البيت أبداً، لم تكن عنده الرغبة في أن يرى الناس، أصبح كئيباً، انطوائياً، لم يروق له فعل أي شيء، سوى أن يسمع الأغاني الحزينة، وبشكل خاص أغنية «شاهينو» وصوت كاويس آغا.

لا للتكنولوجيا

آزاد كبقية شباب جيله كانت لديه رغبة شديدة في أن يكون له مستقبل مشرق، كون وضع البلد أصبح معقداً أكثر من اللازم، والمستقبل فيه كاد أن يكون بلا آفاق. أغلب الناس حوله باتت تفكر في الهجرة وتتجه نحو الشمال باتجاه القارة العجوز، أوربا. آزاد أيضاً أراد أن يجرب حظه في هذه المغامرة، ويهاجر إلى أوربا للدراسة، وتأمين مستقبل جيد له، وبالتالي تأمين بعض المال لكي يعيل والديه العجوزين.

أخبر آزاد أبويه على أنه عازم للهجرة إلى أوربا، وشرح لهم الأسباب، هذا الخبر أفرح والديه كثيراً، كونهما سمعا من الكثيرين عن الذين يسافرون هناك، ويرسلون أموالاً طائلة لأهاليهم. كلاهما وبصوت واحد قالوا: رائع يا آزاد، الله يوفقك ويكون معك.

وصل آزاد إلى أوربا، كانت البدايات صعبة جدا، اللغة، المجتمع الجديد، العادات والتقاليد،،...إلخ. حاول كثيراً أن يؤمن مقعداً له في الجامعة، لكي يتابع دراسة اللغة أولاً، ومن ثم يدرس الفرع الذي يرغبه. لم يمضِ على وجوده في أوربا ستة أشهر، بدأ الأب والأم يتذمران من عدم اتصال ابنهم بهم. قال الأب للأم: هذا ابنك، عديم الإنسانية، لم يسأل عنا أبداً.، إنه بلا ضمير، ابن الجيران بعد وصوله إلى أوربا بعدة أسابيع، أرسل مبالغ كبيرة لأهله، دعينا أن نتصل به عن طريق الهاتف، ربما يرسل لنا بعض النقود. هيا اتصلي به وقولي له إن أباك مريض، ربما يزيد من المبلغ الذي سيرسله. حملت الأم سماعة الهاتف وكلمت ولدها آزاد: ألو ابني كيف حالك؟ لن أطول عليك كثيراً. والدك في المشفى ويلزمنا بعض

النقود، عليك أن ترسلها في أقصى سرعة ممكنة،... مفهوم؟. أستودعك الله. وأنهت المكالمة.

اندهش آزاد من مكالمة والدته، تجمد في مكانه، لم يعد بمقدوره التحرك، بدأ يهذي مع نفسه: ياإلهي ما هذا.؟. ما الذي حدث.؟. من أين لي ان أحصل على نقود لأرسلها لوالدي، ولكي يدفعا تكاليف المشفى، أنني طالب؟، والنقود التي أحصل عليها من الدولة لا يغطي بعد مصاريفي الشخصية. جافى النوم عيني آزاد في تلك الليلة، كان يتقلب في الفراش، يفكر في مصيبته.

في اليوم الثاني ذهب إلى أصدقائه وقص عليهم حكاية والديه. حاول أصدقاؤه أن يجمعوا له بعض المال، أعطوه وقالوا له: هذا المبلغ دين لنا بذمتك، بإمكانك تسديده لنا على شكل أقساط شهرية. هذا الحدث دفع بآزاد أن يجتهد أكثر في دراسته وفي عمله بجانب دراسته، فكر أن يزيد من ساعات العمل الليلية لكي يسدد الدين ويعيل نفسه في الوقت ذاته. كان يردد في داخله، ربما أتعرض إلى موقف آخر من هذا النوع، علي أن أعمل حساب لمثل تلك المفاجئة غير السارة.

لم يمض سوى شهران على مكالمة والدته، جاءه اتصال آخر من أمه. الأم؛ ألو ابني آزاد دعني أخبرك بأن والدك بعدما تعرض له قد دخل في حالة اكتئاب. يريد أن يريح عن نفسه، ويذهب إلى المدينة المجاورة لنا، هناك الجو أفضل من عندنا، حبذا لو ترسل بعض النقود لهذه السفرة. أنهت الأم مكالمتها دون أن تدع آزاد ينطق أيضاً. انصدم آزاد مرة ثانية، أصبح كالمجنون يتكلم مع نفسه، ماهذه الأم، لم تسأل عني ولا عن دراستي ولا عن وضعي وكيف

أعيش؟. كل همها وهم والدي النقود، ياالله، ما هذه المصيبة؟. إنني لم أسدد بعد الدين الأول، كيف لي أن أدبر نفسي هذه المرة؟...

ذهب آزاد إلى صاحب المطعم الذي يعمل فيه وطلب منه مبلغاً من المال، وقال له بإمكانك أن تقتطع كل شهر قسماً من راتبي، بعد أن قص عليه حكاية والديه. تعاطف صاحب المطعم مع آزاد وأعطاه المبلغ. حاول آزاد مرة ثانية أن يزيد ساعات العمل لكي يسدد الديون المتراكمة عليه، وأن يفي بوعده لأصدقائه ولصاحب المطعم. هذه الساعات الزائدة كانت على حساب دوامه في الجامعة، حيث قلص ساعات الذهاب إليها، لكي يستغرق في العمل أكثر. لم تمر سنة على مكوث آزاد في أوربا، حتى حاول والداه أن يتصلا به مرات عديدة وفي كل مرة كانا يسألان عن النقود.

دخل آزاد في مناجاة مع نفسه، كان يقول في داخله: إنني أحب والدي، لكن قسماً بالله العظيم لقد زودوها. إنهم بلا رحمة، علي أن أهتدي إلى إجراء معين لكي أتخلص من هذه المعاناة. فقام بتغير رقم هاتفه، لكي يتفرغ قليلاً إلى دراسته ويسدد ديونه ويقلل من ساعات العمل، ويريح جسده، ويرتاح في الوقت نفسه من مكالمات والديه وطلباتهم التي لا تنتهي.

مرت ستة أشهر أخرى. والداه، لم يتركا أحداً إلا وسألهم عن ولدهما، وفي النهاية التقيا بصديق له، لازالت بينهما علاقة ودية، وهما صديقان على الفيسبوك، ويتواصلان معاً عن طريق المسنجر.

رجا الأب صديق ابنه وقال: آمل منك أن تؤمن لنا اتصالاً مع آزاد؟. اتصل الصديق بـ آزاد عن طريق المسنجر، وقال له: إن والديك هما بجانبي يريدان التحدث إليك. إنهما في غاية الشوق إليك.

أول كلمة قالها الأب لابنه آزاد، أيها التعيس، غيرت رقم هاتفك، لكي لا نتصل بك، حقاً إنك «عاق»،... قاطعه آزاد وقال: أرجوك يا أبي لا تؤاخذني على هذا، لا تعاتبني، كانت لدي امتحانات، لهذا غيرت رقم الهاتف، لكي لا يتصل بي أحد ويضيع وقتي، لم تكونوا أنتم المقصودين بالأمر. ترجى الابن أن يسامحه والداه. عندما سمع الأب نبرة ابنه الضعيفة، أحب أن يستغلها وقال له: إذا كنت حقاً تحب والديك أرسل لنا نقوداً لكي نذهب بها إلى بيت الله، نحج وندعي لك بالتوفيق. رد آزاد على والده: أبي، أتوسل إليك، النقود لا تأتي بهذه السهولة، أنا لم ألملم النقود من الشوارع، كما هو المفهوم الدارج عندكم، إنني أعمل ليلا ونهاراً لكي أعيل نفسي. رد الأب وقال: لم أعد أسمع صوتك، يبدو أن الخط ضعيف، أستودعك الله يا ابني، لكن لا تنس أن ترسل النقود. أغلق الهاتف وسلمه لصديقه وذهب. اندهش صديق آزاد من تصرف والد آزاد، وقال ما الذي عملته بحق صديقي، لقد ارتكبت خطأ فادحاً، كيف سأطلب منه السماح على عملتي هذه؟.

في الجانب الآخر، سقط آزاد على الأرض وبدأ يتنفس بصعوبة، يهلوس ويشتم التكنولوجيا، فالموبايل أولاً ومن ثم الفيسبوك. قال لنفسه: علي أن أغلق صفحة الفيسبوك أيضاً لكي أضع حدا لهذه المأساة.

في اليوم الثاني ذهب إلى الجامعة، التقى بأحد المحاضرين (البرفسور) والذي تربطه به علاقة جيدة، قص آزاد حكاية والديه له، وقصة البلد والوضع الاقتصادي، ومن ثم شرح له أيضاً بأنه يعمل ليلاً ونهاراً لكي يعيل نفسه، وليس بمقدوره أن يساعد والديه

كما يجب. رد البرفسور عليه: بإمكانك أن تستقرض من صندوق الطلبة بعض المال وتسدد لهم على أقساط، بإمكاني مساعدتك في ملء استمارة القرض.

شكر آزاد البرفسور كثيرا على نصيحته ومساعدته، وقال: الحمد الله على أنها فرجت هذه المرة أيضاً. بعد أن أرسل آزاد النقود إلى والديه، هاجر عالم الفيسبوك وأغلق المسنجر أيضاً، لكي لا يستغل والداه هذه الوسيلة مرة أخرى.

تراكمت الديون على آزاد، تأخر في دراسته، بدأ يعمل لساعات طويلة، هذا الشيء أرهقه كثيراً، فبدلاً من أن ينهي دراسته في ثلاث سنوات ويحصل على البكالوريوس، استغرقت الدارسة معه إلى فترة طويلة وغير معلومة...

مرت فترة لا بأس بها، دون أن يكون هناك أي اتصال بينه وبين والديه، لأنهما ماكانا يعرفان رقم هاتفه الجديد وغدت صفحته في الفيسبوك مغلقة.

بدأ القلق السلبي يراودهما، يشتمان ابنهما، يقولان: لقد أغلق ولدنا كل وسائل الاتصال بيننا، بدآ يراجعان ذاكرتيهما، ويستعرضان أسماء أصدقائه، قائلين: ياترى مع من كان يتصل هذا الملعون عندما كان في البلد؟!. فجأة تذكرت الأم، بأن آزاد كان له علاقة مع بنت الجيران، أخبرت زوجها وقالت: إنني متأكدة بأنه يتصل بها، سأجرب حظي وسأذهب إليها، ربما نسمع شيئاً ما عنه. طرقت أم آزاد باب الجيران، فتحت صديقة آزاد الباب، مندهشة من هذه الزيارة، رحبت كثيرا بها، ظناً منها أنها قادمة إلى بيت

أهلها لخطبتها. احترمت الفتاة الضيفة «العزيزة» جداً، وقدمت لها فنجان القهوة، و جالستها. سألت الأم الفتاة: هل يتصل بك آزاد أحيانا؟.

الفتاة من فرحها، وبدون أي وعي قالت: نعم، بيننا اتصال دائم، نتحدث مع بعضنا البعض ونرى بعضنا عن طريق السكايب. سرت الأم كثيراً من كلام بنت الجيران، كادت تطير من الفرح وكأنها كسبت الجائزة الكبرى. قالت لها: ابنتي الجميلة، هل لك أن تتصلي به الآن. إنني مشتاقة له كثيراً، دعيني أراه على هذا الذي تتحدثين عنه، سكايب، مكايب. لم تتوان الفتاة ثانية على طلب أم آزاد (حماتها المستقبلية)، فتحت السكايب واتصلت بآزاد.

لم يتوقع آزاد في حياته بأن أمه ستذهب يوماً ما إلى بيت صديقته، وستطلب منها هذا الطلب. عندما فتح السكايب، رأى وجه أمه في الشاشة، اندهش من الذي يجري، بدأ يهلوس، هل أنا في حلم، أم هي الحقيقة؟. ربما دخلت خطأ في حساب شخص آخر؟. قالت الأم وبصوت حنون: ابني آزاد كيف صحتك؟. أخبارك؟. حمى الله لك هذه الصديقة، بعد هذه الفترة الطويلة جعلتني أرى وجهك، يبدو يا ابني أنك نسيت أمك وأباك؟. صدقني أننا غارقان في الديون، وكما تسمع أو تقرأ عن أخبار البلد فالأسعار أصبحت لاهبة، كل شيء غال هنا ياولدي، أرجو أن ترسل لنا نقوداً لكي نسدد بها ديوننا. لم تدع الأم أن ينطق آزاد بحرف، قالت له: لن أضيع من وقتك كثيراً، استودعك الله، سأذهب الآن، تركت السكايب وتوجهت إلى الفتاة بالشكر وخرجت.

انصدمت الفتاة من تصرف جارتها، وعاتبت نفسها كثيراً، وقالت: ما الذي عملته بحق صديقي؟. ماذا سأقول له، رجعت إلى

السكايب فوجدت أن السكايب مغلق من طرف آزاد، لا بل أن الحساب ممسوح نهائياً.

بدأ آزاد من جانبه يلعن التكنولوجيا ويشتم صانعيها، ويلعن ذاك اليوم الذي ولد فيه وكان نتاج هذه الأم وذاك الأب.

من يومها دخل آزاد في دوامة، كيف سيدبر النقود هذه المرة أيضاً؟، لاسيما أنه لم يسدد بعد بقية ديون أصدقائه، ديون المطعم وديون صندوق الجامعة. ذهب مرة أخرى إلى برفسوره وقص عليه حكاية والده مرة ثانية، رد البرفسور عليه وقال: انتبه إلى دراستك وتخرج، بعدها ستلقى عملاً جيداً يكسبك المال الكثير، وقتها بإمكانك مساعدة والديك. دعك الآن منهما...

في البداية ارتاح آزاد من كلام البرفسور، وقال له: إنك على حق، لقد أصبحا عبئاً كبيراً علي، لم أقدر بعد على طلباتهما.. بعد أن غادر البرفسور، انتبه آزاد إلى تصرفه وقال: ما أقسى سلوك هذا البرفسور؟. ما الذي يقوله،؟. كيف لي أن أدير ظهري عن والدي، علي أن أؤمن لهما النقود.

ذهب آزاد إلى جمعية للأكراد في المدينة التي يسكنها، لكي يطلب المساعدة ويرسلها إلى والديه. التقى رئيس الجمعية، حكى له قصة والديه. رد رئيس الجمعية، بإمكاننا مساعدتك بمبلغ معين، لكن عليك بالمقابل أن تعمل كل يوم في هذا المقر لساعات معينة. ستغسل المكان، ستحضر الشاي والقهوة لجميع الضيوف، ستكون تحت تصرفنا في أي عمل آخر. اضطر آزاد أن يقبل بالعرض بالرغم من معرفته أن الساعات الذي سيعمل خلالها في الجمعية ستكون على حساب ساعات الدارسة ومتابعة المحاضرات، وافق على مضض.

يوماً بعد يوم بدأ النحول على جسم آزاد، أصبح تعباً، مريضاً. كره كل شيء يتعلق بالتكنولوجيا الحديثة، أصبح عدو جميع وسائل التواصل الاجتماعي، كان يغلق هاتفه كل مرة، لم يتقرب من الفيسبوك، أغلق حسابه على السكايب، من شدة الخوف لم يعد يتقرب من حاسوبه أيضاً. دخل في حالة تعيسة جداً، ترك الجامعة، بدأت عليه حالات الكآبة، ابتعد عنه جميع أصدقائه، تراكمت عليه الديون. في الآخير لم يعد يتحمل الوضع الذي فيه، حاول الانتحار. لحقت به السلطات وأودعته في مشفى الأمراض العصبية. هناك كان دائما يصرخ ويردد: لا للتكنولوجيا، لا للموبايل، لا للفيسبوك، لا للسكايب. بعد أن مكث فترة طويلة في المشفى، أصبح منعزلاً، لم يعد يسمع صوت أحد.

كازانوفا في كولن

مجرد أن يتحرك «أفيندار»، تلتفت الأنظار إليه، يتوقع المرء بأن شيئاً جميلاً ما سيحدث، فهو معروف لدى أصدقائه بثقافته العالية وحنكته المميزة وإحساسه المرهف. كل تصرفاته كانت محسوبة ومدروسة. يحاول أفيندار قدر الإمكان إدخال السعادة إلى قلوب الآخرين، وخاصة إلى قلوب النساء.

في فترة المراهقة كان لديه دفتر خاص به يدون فيه مغامراته، يكتب فيه بشكل يومي من التقى بهن من الفتيات، ومن بادلته العواطف والحب، فكان يكتب اسم الفتاة في أعلى الصفحة، ثم يبدأ بوصفها من القدم حتى الرأس: قوامها، ثيابها، مكياجها، أفكارها، يفصفص كيانها، يحللها من جميع النواحي. من خلال هذا الدفتر المليء بالأحداث الغرامية، أصبح لدى أفيندار خبرة كبيرة بعالم النساء.

وخارج عالم الجنس اللطيف، فقد كان له أصدقاء من «الجنس الخشن»، أيضاً وكانوا من النخبة: كتاباً، سياسيين، فنانين. الكل كان يعرف أن أفيندار يملك قلباً رقيقاً ولساناً عذباً، وهو سريع الوقوع في حب النساء. في المقابل كانت له شعبية واسعة عند النساء والفتيات، يطلقون عليه لقب «كازانوفا الكردي». عندما كانت تناديه إحداهن بـ «كازانوفا»، لم يكن يأخذ على خاطره، كان يستلطفها ويتقبل منها هذه «المزحة».

كان أفنيدار من الرجال الأنيقين، يهتم بشكله وهندامه كثيراً، فهو رجل عصري، يتصرف في الحياة ضمن بروتوكولات معينة، لذا فقد كان مرغوباً به لدى شريحة واسعة من النساء والرجال. في بعض الأحيان كان أصدقاؤه يمازحونه ويقولون له: كفاك النظر إلى هندامك ومسح «الغبار» عنه، أنت وسيم حتى بدون هندام.

طريقة أفيندار في التعامل مع النساء كانت مميزة، فمعظم كلامه معهن كان شعراً و سجعاً محبباً، فهو مرن ودبلوماسي، ويجامل كثيراً. كان يغريهم بأفكاره وهداياه الرمزية، ولكي يوقع إحداهن في شباكه كان يقول لها: إنني مشغول بكتابة قصيدة عنك، أو بصدد رسمك عبر اللوحة القادمة. أفيندار كان متعدد المواهب، إذ أنه بالإضافة إلى أنه رسام تشكيلي محترف، فقد كان ينظم بين حين وآخر بعض الأشعار.

في إحدى المرات قرر أن يقيم عدة معارض فنية في مدن أوربية مختلفة، وكانت على رأس القائمة مدينة كولن الألمانية. اختار أفيندار «كولن» بذكاء، فهو لديه فيها وفي ضواحيها معجبون كثر، وعلى الأقل ما بين ثلاث إلى أربع عشيقات. فبدأ ببرنامجه من هذه المدينة، قام بحجز فندق راق - خمسة نجوم . لنفسه، وكذلك استأجر إحدى قاعاتها لعرض لوحاته الفنية فيها. كان يقول في داخله: سأصيد عصفورين بحجر واحد، في الفندق سأفتح معرضي وفي نفس الوقت سألتقي مع عشيقاتي، فهنا مجال لكي أراهن بعيداً عن الأعين، وبمقدورهن أن ينمن عندي أيضاً.

كتب أفيندار إعلانات معرضه ونشرها على وسائل التواصل الاجتماعي، كتب في صفحته على الفيسبوك وفي قسم «حالتي» على الواتسأب وفي حسابه على التويتر، كما عرض بعض لوحاته على تطبيق السناب شات وتطبيق الانستغرام. عشيقاته في كولن علمن بمجيئه، وأنه سيكون هناك غداً، وسيكون بعد غد افتتاح المعرض.

عشيقته الأولى «بارين» كانت على علاقة مع أفيندار منذ زمن طويل، تعرفه منذ أيام البلد - قامشلو، عندما كانا يعملان معاً في

الدائرة نفسها. الآن بارين متزوجة وكذلك أفيندار، إلا أنها تحبه، وهو يبادلها نفس الشعور. علمت بارين عن طريق الانترنيت أن أفيندار سيكون في كولن غداً، لكن حظها العاثر لم يسمح لها أن تلتقي به هذه المرة، فهي وأولادها وزوجها على وشك السفر إلى تركيا في يوم وصوله ذاته، فقامت بكتابة بعض العبارات الجميلة إليه على الواتسآب، تعتذر منه على عدم تمكنها حضور معرضه والالتقاء به، فهي مجبرة أن تسافر مع عائلتها إلى تركيا للسياحة، فحقائبها «مضبوبة» الآن، وهي على وشك السفر بعد ساعات معدودات.

عندما قرأ أفيندار رسالة بارين، أصيب بخيبة أمل، مد يده اليمنى خلف رقبته وبدأ يحكها، ويتمتم: آخ منك أيتها المفتونة، صاحبة المؤخرة الجميلة، لقد فلتِّ من يدي هذه المرة، كنت سأشبعك حباً وقبلات، لكن، ها أنت ستغادرين هنا بعد ساعات؟. دخل لبرهة في حالة من التأمل، بعدها انتابه بصيص من الأمل، وقال: لابأس، لدي هنا مايعوضني عنها.

العشيقة الثانية هي «جين»، فتاة مثقفة متعددة المواهب، تعرفت على أفيندار من خلال الفيسبوك، وأصبحت تكتب له على الخاص إعجابها به وبفنه، وهو الآخر يبادلها العشق والغرام. تعمقت العلاقة بينهما أكثر عندما سافر أفيندار ذات يوم إلى كردستان العراق، حيث تقيم جين هناك مؤقتاً. التقيا، بلقائها انتقلت كل العلاقة النظرية والأفتراضية بينهما إلى علاقة حب وغرام حقيقي. جين وقتها كانت تجهز نفسها للسفر إلى أوربا والالتحاق بعائلتها. بعد أشهر من لقائهما الحي، أصبحت جين في ألمانيا، وسكنت مع أهلها في إحدى ضواحي مدينة كولن.

عندما سمعت أن أفيندار أصبح في كولن، بدأت ضربات قلبها تزداد خفقاناً، وكانت على أحر من الجمر للقاء به، لكن القدر حال ألا يكونا معاً هذه المرة، كون عائلتها فقدت أحد أفرادها، وهم في حالة حزن شديد. فهي مجبرة أن تكون معهم في العزاء. فكتبت لأفيندار على المسنجر: عزيزي أفينو، كم كنت أود أن التقي بك وأحضنك وأشم عطرك «الفهرنهايتي» وأعيشك لحظات حلوة، لم تعشها حتى مع زوجتك، لكن لا نصيب لي فيك هذه المرة. عائلتي فقدت أحد أبنائها، وهم في حالة عزاء، أنا مجبرة ان أكون قريبة منهم. اعذرني!!.

صدم أفيندار من كلامها، ومد مرة أخرى يده اليمنى خلف رقبته وبدأ يحكها، ويتمتم: أيتها الرقيقة والرشيقة ذات الدم الخفيف والجميل، لقد فلت أنت الأخرى من بين يدي هذه المرة، كم كنت في شوق أن أضمك إلى صدري وأتلمس شعرك الطويل، وأقبلك من شفتيك القرمزيتين، لكن يبدو أنني سأعود إلى عالمي الافتراضي معك، بعد أن عشنا معاً عالماً حقيقيا في كردستان. بعد برهة من السرحان والتخيل عاد إلى رشده وقال: لماذا هذا التأمل الطويل، لدي العشيقة الثالثة وهي التي تستقتل لكي تراني؟.

العشيقة الثالثة «هيفي»، المتيمة في حب أفيندار، والتي لها رغبة شديدة في رؤيته، فهي تكتب له بشكل يومي على الواتسآب رسائل عشق، وترسل أحدث صورها إليه. صور بفساتين جميلة وألوان زاهية. صور شبه عارية، تظهر فيها ملامحها الأنثوية المغرية، ترسل له قبلات، شفاهاً حمراء، أغانٍ رومانسية، تسمعه صوتها الرخيم. وفي بعض الأحيان يتبادلان الحديث الرومانسي عبر السكايب والفيس تايم.

بدأت صداقتهما عبر الفيسبوك قبل سنتين، تحديداً عندما كانت هيفي في تركيا. كانت تتصل به بشكل دائم، تبدي رغبتها في المجيء إلى أوربا وتحديداً إلى البلد الذي يعيش فيه أفيندار. وقتها قدم أفيندار لها الكثير من النصح والملاحظات عن عملية اللجوء والفيزا والأمم المتحدة، والطرق غير الشرعية للوصول إلى أوربا. بعد محاولات عدة أصبحت هيفي في أوربا، وهي في طريقها إلى بلد أفيندار، تم القبض عليها في ألمانيا، وأجبرت على أن تقدم لجوءها (طلب اللجوء) هناك. بعد حصولها على الإقامة، تم تسكينها في إحدى البلديات القريبة من مدينة كولن.

هيفي امرأة مطلقة، عمرها لايتجاوز أربعين عاماً، لديها ابنة ذات ستة عشر ربيعاً، تعيشان معاً. أفيندار لم يكن يعرف أن هيفي لديها فتاة بهذا العمر، كون شكلها يوحي على أنها فتاة في العشرينات أو الثلاثينات من العمر، فقد كانت مشغولة دائما بجمالها ومكياجها وقصات شعرها، فهي جميلة، رشيقة، لديها نهدان مغريان، من الحجم الكبير. عندما ترتدي هيفي فستاناً ضيقا، يكون شكل نهديها كمن ينادي «هيا على الفلاح».

اتصل أفيندار بهيفي هاتفياً وقال لها: ها أنا هنا في مدينتك، جهزي نفسك لكي نتقابل، أسكن في الفندق الفلاني، وهاهو عنوانه. إنه فندق رائع، يناسب مقامك العالي. شعر أفيندار وهو يتكلم معها، لا صوت منها، ولا إحساس. استرسل في كلامه وقال: غداً سيكون افتتاح المعرض، أتمنى ان تكوني موجودة، وبإمكانك ان تجلبي أصدقاء لك إذا أحببت.

كان أفيندار على أمل أن عشيقاته الثلاث ستحضرن معرضه وستفرحن قلبه العاشق، وتساندنه في فعاليته هذه، لكن يبدو أنه أخطأ في التوقيت، فلا تجاوب من إحداهن. كلهن مشغولات.

حاول أفيندار مرة ثانية أن يهاتف هيفي، لكن لا جواب. في المساء انتابت أفيندار حالة من الذهول، كيف لا تتصل به هيفي، وهي التي كانت تتمنى مثل هذه اللحظة. راودته أفكار غريبة: هل هيفي في مصيبة؟ هل هي مريضة؟ على الأقل كان عليها أن تقول لي ما الذي يشغلها؟. الآن بعد أن صرت بالقرب منها فهي تريد الابتعاد عني، لا أصدق!!. جرب أفيندار مرة أخيرة أن يهاتفها، ويسمع قرارها النهائي. ردت هيفي وقالت: عزيزي أفيندار، صدقني لا أعرف ماذا سأقول لك، أنا آسفة جداً وحزينة ألا ألتقيك هذه المرة. الحقيقة كانت لدي خطة أن أراك وأبقى معك منذ مجيئك ولغاية الانتهاء من المعرض، لكن مقصوفة العمر «ابنتي» عطلت كل الخطة. ربما لا تدري أن لدي ابنة، اسمها «آواز» هي في مرحلة المراهقة. كانت خطتي أن أبقيها في بيت عمتي خلال وجودك هنا، وأنا أبقى معك، لكنها رفضت أن تذهب إلى بيت عمتي، وأنا لا أستطيع أن أتركها وحدها في البيت، ولازال الحديث بيني و بينها مستمراً في هذا الموضوع، حقيقة لا أعرف كيف سأتصرف.

رد أفيندار عليها، وقال: أقدر وضعك. طيب، حاولي أن تقنعيها بالمجيء معك إلى المعرض، سأكون سعيداً برؤيتك ورؤية ابنتك آواز. فأنا في انتظاركما غداً صباحاً. استودعها على أمل اللقاء.

في اليوم الثاني، تم افتتاح المعرض، كان إقبال الضيوف والأصدقاء جيداً، الكثير من أصدقاء أفيندار يعرفون إمكاناته

الفنية، كانوا يبدون إعجابهم بلوحاته وفنه. كل الضيوف لم يلفتوا انتباه أفيندار، كانت عيناه دائما في ترقب بقدوم هيفي وابنتها.

انتهى وقت المعرض، ذهب الزوار. للمرة الثالثة، رفع أفيندار يده اليمنى خلف رقبته وبدأ يحكها ويتمتم: أم الصدر الكبير أيضاً لم تأت، ما هذا العشق التعيس يا ربي، ولماذا لقب الكازانوفا؟ الآن تأكد لي أن كازانوفا رجل فاعل بدون فعل. هل معقول أن يصدف أن ثلاث عشيقات ينشغلن في نفس الوقت، كنت في انتظار واحدة منهن على الأقل لتواسي هذا القلب المفجوع والموجوع؟.

بدلاً من المقدمة

وأنا أباشر بقراءة هذه المخطوطة القصصية، بادر اسمان: القرغيزي جنكيز إيتماتوف، والتركي عزيز نيسين. الانغماس في الواقعية حدّ التفصيلات في عوالم لازالث بكراً، وغير مكتشفة بهذه التفصيلات الدقيقة . عين الكاميرا، وليست عين الفانتازيا، بل عين الكتابة الصارمة في نقل الواقع الكردي بدقائقه الاجتماعية أولاً. لم يكن من بدٍّ في نقل هذا الواقع في كتاب صلب، حاد، في سرد طويل أحياناً، وخروج عن السياق الحكائي . البناء القصصي، ومع ذلك تظل اللغة الساخرة موجودة في بعض القصص، ونقد الواقع الكردي، وفي الأخص الاجتماعي، ومن سهول الجزيرة، وجبال كردستان، حتى أوسلو، ينتقل بنا الكاتب في قصصه بانتقال العين الراصدة لما عايشه أو سمعه.

* * *

قصص الكتاب تُقرأ بسهولة، دون ادعاءات كثيرة، وهذه ميزة للكاتب، فلم يلجأ إلى المذاهب القصصية المعاصرة وشطحاتها .

محمد عفيف الحسيني

الفهرس

1. الدونجوان 5
2. أمل الحب، ضحية الحب 15
3. أزعر قدوربك 27
4. العشق المتجدد 35
5. جريسكة 45
6. بائع الحليب والأرملة الصغيرة 57
7. «بوزو» من التدين إلى الإلحاد 65
8. صاحبة القلب العجوز 77
9. صقر الجبال والوديان 83
10. فلافل ورقائق الفافل 93
11. لا للتكنولوجيا 101
12. كازانوفا في كولن 111

بدلاً من المقدمة 121

عبدالباقي حسيني

كاتب كردي سوري، مواليد1961 القامشلي ـ قامشلو.

- مقيم في النرويج منذ عام 1999.

- الأعمال المطبوعة بالكردية:

1ـ قصص الأمراء ـ كتاب فلكلوري، بيروت 1991.

2ـ ملحمة حمدين وشمدين، إعداد وتقديم، اسطنبول 2006.

3ـ مجموعة قصصية (Bervajî Firendekan) ـ عكس الطيور، اسطنبول 2016.

- ترأس تحرير المجلات الكردية: «كورزك كوول»، «زانين»، «أوركيش»، ونشرة «الربيع الجديد».

- رئيس الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الكورد في سوريا.

- يرأس حالياً إدارة الجريدة الالكترونية «بينوسا نو. القلم الجديد» القسم الكردي.

- قصص هذا الكتاب مستلة من المجموعة الكردية (Bervajî Firendekan)

- كُتبت القصص مابين أعوام 2000 ـ 2018.